

دَوَاءٌ

مجلة فكرية دورية

- رسالة ثقة وأمل إلى الشعب السوري الحُر
- المرأة السورية قبل التحرير وبعده: نظرة إلى المستقبل
- الحسبة ودورها في حماية الأسرة
- غرائز الطيور.. أَلغاز تتحدّى نظرية التطور



التوبة من مملأة الظالمين: سوريا بعد التحرير نموذجًا

32

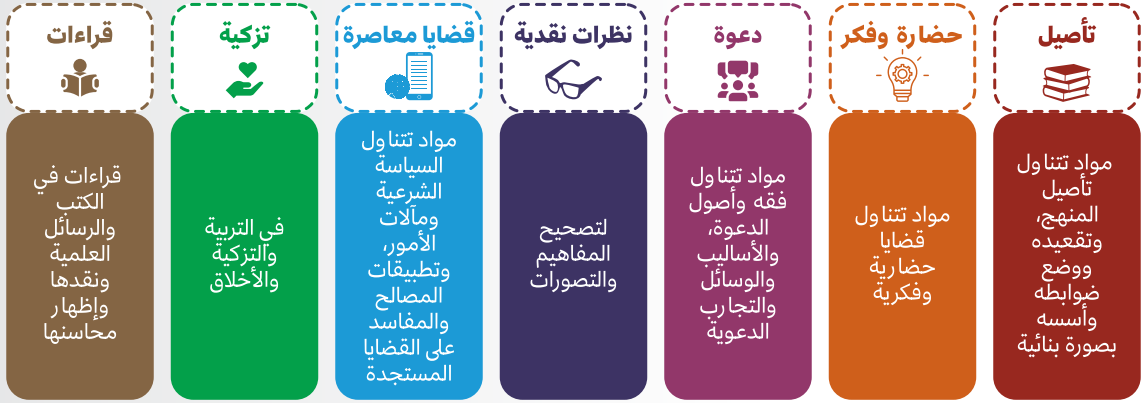
العدد الثاني والثلاثون

شوال ١٤٤٦هـ - نيسان / أبريل ٢٠٢٥م

هذه المجلة

- (رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:
- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
 - بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
 - تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
 - إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية ضمن المحاور الأساسية للمجلة



ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة بسياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحْكَم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يُقدّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

- ١ كيف تنهار الأمم وتزول؟ ٢
الافتتاحية
- ٢ رسالة ثقة وأمل إلى الشعب السوري الحر ٨
د. مصطفى يعقوب
- ٣ المرأة السورية قبل التحرير وبعده: نظرة إلى المستقبل ١٣
د. رغداء زيدان
- ٤ الحسبة ودورها في حماية الأسرة ٢١
أ. جهاد بن عبد الوهاب خيتي
- ٥ التوبة من مملأة الظالمين: سوريا بعد التحرير نموذجًا ٢٨
أ. عبد المجيد بدوي
- ٦ إستراتيجية إيران للهيمنة وتصدير التشيع في أفريقيا ٣٤
د. فاطمة علي عبود
- ٧ غرائز الطيور.. أغاز تحدى نظرية التطور ٣٩
م. فداء ياسر الجندي
- ٨ التربية بالقدوة قبل التلقين ٤٥
أ. هدى عبد الرحمن النمر
- ٩ العمران في القرآن مفهومًا ومقصدًا ٥٠
د. فاطمة الزهراء دوقيه
- ١٠ إن الناس قد جمعوا لكم ٥٧
أ. أحمد أرسلان
- ١١ قراءة في كتاب: «فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم»، لعلي الصلابي ٦٢
أ. محمود كريم
- ١٢ بأقلام القراء ٧٠
مجموعة من القراء
- ١٣ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ٧٢
د. خير الله طالب

رَوَاء

مجلة رواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين



أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

فريق التحرير
أ. جهاد خيتي
أ. عبد الملك الصالح
أ. أحمد خالد أحمد

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:

rawaa@islamicsham.org



rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كيف تنهار الأمم وتزول؟

تتغير موازين القوى ويتراجع نفوذ القوى ويتقدم الضعيف إلى الأمام.

لمن السيطرة والنفوذ؟

يبدو العالم الغربي اليوم قويًا للغاية؛ فهو المتفوق في الميزان العسكري والاقتصادي، ولديه شبكة واسعة من التحالفات الدولية، وهو الذي يدير المنظمات الأممية التي تتدخل في شؤون دول العالم، فضلاً عن الفجوة الهائلة من التفوق الصناعي والتقني بين العالم الغربي وبقية دول العالم، وقل مثل ذلك عن مجالات الاتصالات والطب والدواء وحتى الزراعة وإنتاج الغذاء... والقائمة تطول، وأمام هذه القوة الهائلة تتضاءل إمكانيات ما يسمى «دول العالم الثالث»، حتى إن اليأس قد يصيب بعض النفوس من ضخامة الفجوة. فهل باتت الأمور تحت سيطرة العالم الغربي بالكامل؟ وإلى متى ستستمرّ هذه السيطرة؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من تقرير أنّ الله تعالى هو من يدبر الأمور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ

مدخل:

الأمم التي تتفوق في مجالات القوة العسكرية والاقتصادية، وتزدهر فيها الحياة والصناعات، وتتقدم على غيرها في موازين الصراعات؛ يصيبها نوعٌ من الزهو والغرور، وتبدأ في البغي والظلم بلا رادع أو وازع، حتى تتسلل إلى أفكار قادتها قناعات خطيرة من قبيل: استحقاقهم الدائم للتفوق والسيطرة، أو أنّ الأقول والسقوط لن ينال منهم.

وفي المقابل تتسلل أفكار أخرى للشعوب المهزومة أمام قوة وبطش الأمم الغالبة، من قبيل: أنه لا سبيل إلى هزيمة هؤلاء المتجبرين، وأنه لا فائدة من مقاومتهم أو السعي في امتلاك أسباب القوة والنهوض؛ ناظرين إلى ضخامة ما تملكه هذه القوى من إمكانيات بالمقارنة مع ضعف المغلوب وضآلة إمكانياتهم.

أو قد يرى الطرفان (الغالب والمغلوب) أنّ الأمر يحتاج إلى قرون طويلة، أو أجيال متعاقبة حتى

خلالها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، وقال جل شأنه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

لله طريقة في إدارة الكون وتسيير الخلق تُعرف بالسنن، وهي قوانين عامة شاملة، تنطبق على جميع الأمم والشعوب، لا تحابي أحداً ولا تتخلف عن قوم، جاء بها القرآن ووضحتها سنّة النبي ﷺ، ودلّ عليها استقراء التاريخ ودراسة الحراك البشري

إهلاك الأتقوام السابقين:

عند التأمل في أخبار الأمم السابقة وما ورد فيها من نصوص شرعية يتبين أن من أهم أسباب هلاك الأمم السابقة:

١. الكفر والتكذيب:

فقضية الإيمان والتوحيد هي أعظم ما جاءت به رسالات الأنبياء ودعواتهم لأقوامهم، وما عصي الله بأعظم من الشرك والكفر به، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن ثم فإن الكفر بالله تعالى وعصيان أمره كان هو السبب الأعظم في نزول نقمة الله تعالى وهلاك تلك الأمم وزوالها، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

ومن ذلك: الجحود والتكذيب بعد معرفته، كما وقع من بلعام بن باعوراء الذي آتاه الله العلم ومع ذلك اتبع هواه وحارب دين الله: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَارِينَ﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ

رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. فهو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، العليم بكل شيء، خلق الخلائق وقدر أحوالها وأحاط بها علماً، وكل شيء يجري في هذا الكون بتدبير الله تعالى وتقديره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)^(١). وقال ﷺ: (كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس)^(٢).

وهذا يعني أنّ كل هذه القوة حصلت لهم بعلم وإذن من الله، وأن كل ما يحصل اليوم إنما قدره الله وأذن به لحكمة بالغة يريد بها وهو الحكيم العليم.

إنّها السنن:

لله طريقة في إدارة الكون وتسيير الخلق تُعرف بالسنن، وهي قوانين عامة شاملة، تنطبق على جميع الأمم والشعوب، لا تحابي أحداً ولا تتخلف عن قوم، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، جاء بها القرآن ووضحتها سنّة النبي ﷺ، ودلّ عليها استقراء التاريخ ودراسة الحراك البشري.

من أهم هذه السنن: سنّة استبدال الأمم، ومقتضاها أنّ الأمة إن خرجت عن الطريق السوي الذي ارتضاه الله لها، ولم تؤدّ رسالتها الموكلة لها، وتجاوزت حدها بالكفر والتكذيب والظلم والطغيان؛ فقد عرّضت نفسها للزوال والاستبدال بأمم أخرى تقوم مقامها وتحل مكانها؛ لتختبر هي الأخرى، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد قص علينا القرآن قصص الأمم السابقة مثل قوم فرعون، وعاد، وثمود، وبنو إسرائيل؛ لنتدارسها ونتعظ بها، ونفهم حركة التاريخ من

(١) أخرجه مسلم (٣٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥)، والكيس بفتح الكاف: ضد العجز، ومعناه الجِدْق في الأمور، ويتناول أمور الدنيا والآخرة. ومعنى الحديث: أنّ كل شيء لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيبته. فتح الباري (٤٧٨/١١).

تَثْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٥-١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

٢. البطر والتترف:

الزكران والجحود الذي يعترى النفس البشرية بعد أن يحصل لها الظفر بالدنيا ومتاعها فينقلب من الشكر لصدده؛ سبب لنيل العذاب والتنكيل، قال تعالى في قوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ [سبأ: ١٥-١٦].

وكما حصل من قارون الذي آتاه الله مالا عظيما، فبطر نعمة الله، ونسبها لنفسه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فحققت عليه العقوبة: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، وفي القرآن أمثلة أخرى، مثل صاحب الجنة في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم.

٣. الظلم والطغيان:

الظلم من أهم أسباب هلاك الأمم والشعوب وزوال حضارتها؛ لما فيه من إفساد الحياة بكافة مظاهرها الشخصية والاجتماعية، والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فلا صلاح للدين والدنيا مع الظلم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ومن ذلك أخذه تعالى لقوم عاد الذي تجبروا وطمعوا وبغوا حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨].

فالحيف وسلب الحقوق وإهدار الكرامات مبعث الشقاء ومثار الفتن، قال شمس الدين الغرناطي: «نبيّة الظلم كافية في نقص بركات العمارة؛ فعن وهب بن منبه: إذا هم الولي بالعدل أدخل الله البركات في الأسواق والأرزاق، وإذا هم بالجور أدخل الله النقص في مملكته حتى في الأسواق والأرزاق»^(١).

(١) بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق الغرناطي (٢٢٧/١).

٤. ارتكاب الذنوب والمعاصي:

فشيوع الفساد في الدين والأخلاق والمعاملات من أعظم أسباب تنزل غضب الله تعالى وعقوبته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فقد كان انحراف قوم شعيب في الجانب الاقتصادي، وانحراف قوم لوط في الجانب الأخلاقي، وكلهم قد نالهم نصيب من العذاب، كما عاب الله تعالى على قوم لوط أموراً أخرى غير الفاحشة القبيحة، ﴿أَبَيْتُكُمْ لِتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وكانت من جملة أسباب إهلاكهم.



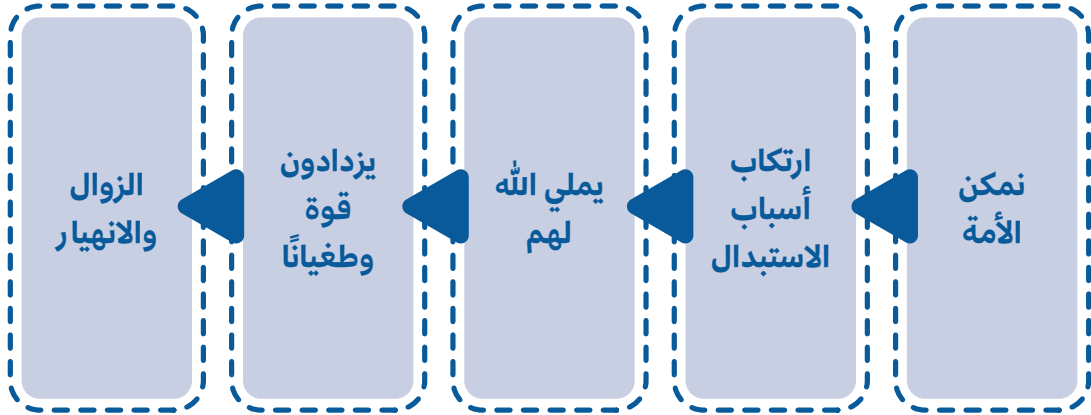
الحيف وسلب الحقوق وإهدار الكرامات مبعث الشقاء ومثار الفتن، قال شمس الدين الغرناطي: «نبيّة الظلم كافية في نقص بركات العمارة؛ فعن وهب بن منبه: إذا هم الولي بالعدل أدخل الله البركات في أهل مملكته حتى في الأسواق والأرزاق، وإذا هم بالجور أدخل الله النقص في مملكته حتى في الأسواق والأرزاق»

سنة الاستدراج:

قد يظن بعض الناس -خصوصاً في هذا العصر- أنّ عصر القضاء على الأمم بسبب كفرها أو طغيانها أو عصيانها قد انتهى؛ لما يرون من طول تمكين الشر وطول استضعاف أهل الإسلام، ولما يرونه من ضخامة الإمكانيات المادية التي يمتلكها أهل الباطل، إلى درجة تحكمهم في مجتمعاتنا وما تتلقاه في الإعلام والتعليم، وقدرتها على إحداث الفتن والشقاكات داخل الصف الواحد. وهذا لا شك أنّه ناتج عن قصور النظر في التاريخ والسنن، فالله تعالى لا يعاجل الأمة المستحقة بالعذاب، بل يتركهم حتى يطمئنوا ويظنوا أنّهم قد تمكنوا من أسباب البقاء والخلود.

هذه هي سنة الاستدراج، وهي من السنن الإلهية الكبرى، والتي تعني الإمهال لمستحق

مراحل زوال الأمم



فساد بني إسرائيل وعلوهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيُذِخُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٤-٧].

كما حذر ﷺ من العاقبة الوخيمة لفساد المجتمعات، فقال: (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)^(١)، وهو أمر ملاحظ مشهور في الوقت الحالي.

قال سيد قطب رحمه الله: «هذه وقفة في سياق السورة (الأعراف) للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققتها قدره بالمكذبين في كل قرية... وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ويتشكل

العذاب؛ فلا يعاجله الله تعالى بالعقوبة، بل يتركه سادراً في غوايته، مغترّاً بما أنعم الله عليه، حتى يخيل إليه أنه قد نجا من العذاب، وأنه مستحق لما فيه من النعم، حتى يأتيه العذاب فجأة فيكون أشد وأنكى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٤٤]، ورد عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله تعالى ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [هود: ١٠٢]^(١).

وقد حذر تعالى من الأمن من مكره، والركون إلى استدراجه، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٩٩] وأن سنته في الأقسام الإملاء لهم: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ١٦].

كما أخبر عن وقوع العذاب في آخر الزمان على أمم وأقوام بسبب كفرهم وتكذيبهم وفسادهم، ومن ذلك:

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩).

والاستبدال لا يستثنى منها أحد، فقد وردت عدة أحاديث بالتحذير بقول (إنما أهلك من كان قبلكم...) وهذا دليل على أنها سنن سارية في البشرية ما دار الزمان وتعاقب الليل والنهار.

وجاء في تحذير هذه الأمة من الهلاك والعقاب: (أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علي من كان قبلكم، فتتأفسوها كما تتأفسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)^(٢)، وحديث: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)^(٣).

وقوله: (في هذه الأمة خسفٌ ومسحٌ وقذفٌ)، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتي ذلك؟ قال: (إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر)^(٤).

نظرة على العالم اليوم:

يشهد العالم اليوم حالة متصاعدة من التجبر والغطرسة، وانحطاطاً إلى أدنى الدرجات في الأخلاق والقيم، ومصدر هذه الحالة اليوم ليس أمة من الأمم أو دولة من الدول كما كان يحصل في السابق، لكنه تضافر دولي وتواطؤ عام على الظلم بأعتى صورته وأبشع أشكاله.

فالرأسمالية المتوحشة وأدواتها من صندوق النقد الدولي والمصارف المحلية تكرر غنى الأغنياء وتزيد الفقراء فقراً، والأسلحة الفتاكة التي يختص بعضها بنشر الأوبئة والأمراض وبعضها بقتل الأحياء وبعضها بصنع دمار شامل لا ينجو منه بشر ولا حجر، والقوانين والأنظمة التي تراعي القوي وتقهّر الضعيف، وتتيح للقائد أن يسرف في القتل وتمنع الضحية من الدفاع عن نفسها، والإعلام الذي ينشر الرذيلة والفتنة ويحارب الفضيلة والوحدة؛ كلها مظاهر لحالة تواطؤ عالمي على الظلم وأنواع الآفات والشور التي بسببها محقت أُمم ومحيت دول فيما مضى.

أما الكفر فقد بلغ في الغرب غايته، فبدلاً من أن يعملوا جهدهم في البحث عن الحقيقة وصراف الله المستقيم، إذا بالإلحاد يستشري فيهم كاشتعال

بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل، أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله...

فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء، وفتح عليهم الأبواب، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون، كل ذلك للابتلاء، حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص، وإلى الغفلة وقلة المبالاة، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا قصد ولا غاية، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل؛ لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ!﴾ أخذهم الله بغتة، وهم سادرون في هذه الغفلة^(١).

يظن بعض الناس أن عصر القضاء على الأمم بسبب كفرها أو طغيانها أو عصيانها قد انتهى؛ لما يرون من طول تمكين الشر وطول استضعاف أهل الإسلام، وهذا ناتج عن قصور النظر في التاريخ والسنن، فالله تعالى لا يعاجل الأمة المستحقة بالعذاب، بل يتركهم حتى يطمئنوا ويظنوا أنهم قد تمكنوا من أسباب البقاء والخلود

والمسلمون ليسوا استثناء:

كان خطأ بني إسرائيل الأعظم أنهم ظنوا أن تفضيل الله لهم على الأمم السابقة هو تفضيل نهائي لا رجعة فيه، وأنهم بذلك يستحقون المكانة الرفيعة عند الله، فقالوا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ووصل بهم الحال إلى اعتقاد أنهم يستحقون الجنة على أي حال: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، ولهم اعتقاد خاص في النار: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

لذا ورد في شريعتنا التحذير من سلوك طريق الاغترار الذي وقع به من سبق، وأن سنة الإهلاك

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١٣٣٥/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢١٢).

”
**إِنَّ مَا صَبَّرَ السُّورِيِّينَ فِي مُحَنَّتِهِمْ
 وَالْفِلَسْطِينِيِّينَ فِي مَآسِيهِمْ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ
 الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا هُوَ
 هَذِهِ الْعَقِيدَةُ الرَّاسِخَةُ فِي النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ،
 الَّتِي يَفْهَمُ بِهَا الْمُؤْمِنُ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى
 مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّوْبِينِ، وَمَعَانِي
 سُنَنِ اللَّهِ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْلَاءِ وَالِاسْتِبْدَالِ
 وَغَيْرِهَا؛ فَسَطَّرُوا بِذَلِكَ أَرْوَعَ صَفْحَاتِ
 التَّضْحِيَةِ وَالبَطُولَةِ وَالِانْتِصَارِ**

حكمة عظيمة:

الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء الذي فيها صعب وشاق ﴿لِيُمَيِّرَ اللَّهُ الْحَيِّثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأَنْفَالُ: ٣٧]، ومن مقتضيات هذا الابتلاء أن يظهر فيه مدى يقظة الناس وغفلتهم، وأن يتميز صادق الإيمان من الكاذب المدعي، فإذا عجل الله العقوبة للناس بكل ظلم يفعلونه كان الابتلاء ناقصاً، وسيستقيم كثير من الناس لا لإيمانهم بل لخوفهم من العقوبات العاجلة، لكن عندما يملئهم ويتركهم سادرين في غيهم، فإنَّ الابتلاء يكون أكمل وتكون العقوبة أكثر استحقاقاً، ويكون المؤمن المستضعف أرفع درجة بطول صبره وشدة معاناته وعمق إيمانه.

وهذه حكمة عظيمة من حكم التلازم بين سنتي الاستبدال والاستدراج، ولا تطمئن نفس المؤمن إلا بفهمها وتدبرها والنظر إلى الأمور وفق منظورها ومقتضاها.

بل يمكن القول: إِنَّ مَا صَبَّرَ السُّورِيِّينَ فِي مُحَنَّتِهِمْ وَالْفِلَسْطِينِيِّينَ فِي مَآسِيهِمْ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهَالِي الْبِلَادِ الْمُنْكَوبَةِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا هُوَ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ الرَّاسِخَةُ فِي النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ، الَّتِي يَفْهَمُ بِهَا الْمُؤْمِنُ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّوْبِينِ، وَمَعَانِي سُنَنِ اللَّهِ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْلَاءِ وَالِاسْتِبْدَالِ وَغَيْرِهَا؛ فَسَطَّرُوا بِذَلِكَ أَرْوَعَ صَفْحَاتِ التَّضْحِيَةِ وَالبَطُولَةِ وَالِانْتِصَارِ.

النار في الهشيم، مدعوماً بنظرية التطور التي استخدمت وكرست بقوة وسطوة المجتمع العلمي، واضطهد مخالفيها وضيق عليهم حتى في أكثر الدول حماية لحرية الرأي والمعتقد.

ومن جانب آخر يشهد المراقب تبهاً عقدياً يدعو للعجب! فبعد أن كانوا أبناء ديانة سماوية شابها التحريف، إذا بهم يظهرون التقدير والاحترام للديانات الوثنية الشركية متعددة الآلهة، ويستدعون من الميثولوجيات الشعبية التاريخية معتقدات تصادم العقل والفطرة ولا يدل عليها دليل صحيح يقبله العقل السليم، وكم سمعنا عن اتباع أعداد كبيرة من الغربيين للديانات الشرقية وللشامانيات المحلية ورموزها بما يدعو للعجب.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصلوا إلى حد عبادة الشيطان نفسه، وتكريس رموز هذه الديانة الشيطانية في مختلف الأعمال الفنية والثقافية والإعلامية، في تحدٍّ صارخٍ لله تعالى ولتوحيده.

ومن جانب آخر هذه الولايات المتحدة الأمريكية -مع حلفائها وأتباعها- تدافع عن ربيبتها (دولة الاحتلال) وتمدها بأسباب القتل والفتك والبطش بالمدن العزلة، وتتفاح عن جرائمها في المجمع الدولية، وتشوه الحقائق وتزور التاريخ، إلى جانب كل ما سبق ذكره من التجبر السياسي والمالي والعسكري والإعلامي والأخلاقي؛ يجعلنا نعتقد بما لا يدع مجالاً للشك أنها في قمة زهوها وطغيانها، وأن السنن آتية عليها لا محالة، وأنها أيام وسنوات يملئها الله لهم ثم يجري عليهم سنته في أفول الأمم وزوال الدول، قال جل شأنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمَرُونَ بِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

”
**يشهد العالم اليوم حالة متصاعدة من
 التجبر والغطرسة، وانحطاطاً إلى أدنى
 الدرجات في الأخلاق والقيم، ومصدر هذه
 الحالة اليوم ليس أمة من الأمم أو دولة
 من الدول كما كان يحصل في السابق،
 لكنه تضافر دولي وتواطؤ عام على الظلم
 بأعتى صورته وأبشع أشكاله**



دعوة

رسالةُ ثقةٍ وأملٍ إلى الشعبِ السوريِّ الحُرِّ

د. مصطفى يعقوب^(*)

يقدمُ المقال رسالة أمل للشعب السوري بعد تحرُّره من نظام استبداديٍّ، مستلهماً قول موسى عليه السلام: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. يشرحُ المقال ثلاثيةً قرآنيةً متكاملة لرفض اليأس والاستسلام، واستحضار المعية الإلهية، مع اليقين بالهداية الإلهية. ويطبِّق هذه الثلاثية منهجاً شاملاً لمواجهة التحديات النفسية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية في سوريا الجديدة.

هذه الصيحات، صوتٌ عظيمٌ يحمل في طياته قوَّة الإيمان وعظمة اليقين وروعة التوكُّل: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، إنها صرخة الثقة بالله والرفض القاطع للاستسلام، إعلان الإيمان بوعد الله ونصره، واليقين بمعينته وهدايته، حتى في أحلك الظروف وأصعب اللحظات.

وإذا نظرنا إلى واقع سوريا اليوم بعد أن تحرَّرت من نظام استبداديٍّ جاثم على صدرها لنصف قرن، قتلَ فيه الملايين وزجَّ بالأحرار في غياهب السجون، ألا نجد أنفسنا أمام مشهدٍ شبيهٍ بمشهد قوم موسى؟ بحرٌّ من التحديات أماننا: إعادة الإعمار، علاج الجراح، بناء المؤسسات، تحقيق المصالحة، مواجهة الأطماع الخارجية، وجيوش من المصاعب والعقبات خلفنا: تركة ثقيلة من الدمار والخراب،

في لحظة فارقة من تاريخ البشرية، حيث وقف الباطل شامخاً متكبراً، والحقُّ مُطارداً مُحاصراً، انطلقت كلمات خالدة من حنجرة نبيِّ كريم، لتصبح منهجاً للأجيال، ومنازاً للشعوب، ودستوراً لكلِّ مَنْ أراد النجاة في زمن المحنِّ والأزمات، وقف موسى عليه السلام على شاطئ البحر، والموت يتربَّص به وبمن معه من المؤمنين المستضعفين، البحر أمامهم سدٌّ منيعٌ، وفرعون وجنوده خلفهم بخيلهم ورجلهم وعتادهم، في موقفٍ بدا فيه الهلاك حتمياً وفق كلِّ المعايير المادِّية والحسابات البشرية، هنا ارتفعت صيحات اليأس من المحيطين بموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، صرخة الاستسلام والهزيمة النفسية قبل الهزيمة الميدانية، صوت اليأس الذي لا يرى في الأفق إلا الظلام، لكنَّ صوتاً آخر علا فوق

(*) متخصص في التفسير والدراسات القرآنية.

الصحة نقول: كلا، لن يموتَ مرضانا لنقص الدواء والعلاج، وفي مجال الاقتصاد نقول: كلا، لن يستمر الفقر والبطالة تفكك بشبابنا، وفي مجال السياسة نقول: كلا، لن نعود إلى نظام الحزب الواحد والفكر الواحد والرأي الواحد.

عندما اندلعت الثورة السورية ضدَّ نظام الاستبداد كانت صيحاتهم «يا الله ما لنا غيرك يا الله» تجسيداً عملياً لهذه الـ «كَلَّا»، كانت صرخة رفضٍ لواقع لا يليق بالإنسان، وإصراراً على الكرامة والحريّة، رَغَمَ كُلِّ التوقعات التشاؤمية التي كانت تؤكد استحالة مواجهة نظام يملك أدوات القمع والبطش، ورغَمَ كُلِّ الدماء والتضحيات نصرَ الله تعالى الشعب السوري في كسر حاجز الخوف، وأثبتَّ للعالم أن «كَلَّا» واحدةٌ صادقةٌ قادرةٌ على هدم قلاع الظلم وأوكار الاستبداد.

المعيّة الإلهية هي سرُّ القوة الحقيقية، وينبوع الأمل الذي لا ينضب، فالمعيّة تعني أن الله مع عبده بعلمه وسمعته وبصره ونصره وتأييده، وعندما يستشعر الإنسان أن الله معه يتلاشى الخوف من قلبه، وتزول الرهبة من نفسه، ويشعر بقوةٍ لا تقاس بقوى البشر، وعزةٍ لا تعادلها عزة المال أو السلطان

المرحلة الثانية / استحضار المعية الإلهية:

بعد «كَلَّا» القاطعة يأتي الاستناد إلى قوةٍ لا تُقهر وقدره لا تُحد: «إِنَّ مَعِيَ رَبِّي»، وهنا نلاحظ بلاغة القرآن العظيمة، فأتى بحرف التوكيد (إِنَّ) ليبدد كلَّ ظلال الشك، ويصبَّ الحقيقة في قالب اليقين الجازم.

وموسى عليه السلام لم يقل «إِنَّ ربي معي»، بل قال «إِنَّ مَعِيَ رَبِّي»، بتقديم الظرف «معي» على المبتدأ «ربي»، وهذا يفيد الاختصاص والتأكيد، أي: إِنَّ مَعِيَ أَنَا، لا مع غيري، ربي الذي يرعاني ويحفظني وينصرني ويدبر أمري.

هذه المعية الإلهية هي سرُّ القوة الحقيقية، وينبوع الأمل الذي لا ينضب، فالمعيّة تعني أن الله مع عبده بعلمه وسمعته وبصره ونصره وتأييده، كما قال تعالى لموسى وهارون عندما أرسلهما

تشتت وتمزق، فقرٌ وبطالة، انهيارٌ اقتصادي، وجروحٌ نفسية عميقة، وكما في ذلك الموقف التاريخي تعلو اليوم أصوات من يرددون بنبرة اليأس المهزوم: «إِنَّا لَمُدْرِكُونَ»، لا أمل، لا مستقبل، لا خلاص، الوضع معقدٌ للغاية، والمستقبل مظلمٌ، والتحديات أكبر من طاقتنا.

لكن الصوت الذي ينبغي أن يعلو فوق هذه الأصوات اليائسة هو صوت الإيمان والثقة والأمل: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، نعم، نحن نواجه تحديات جسيمة، لكن الله معنا، نعم، الطريق وعزٌّ وطويل، لكن الله سيهدينا، دعونا نجعل من هذه الآية الكريمة شعاراً لحياتنا، ودستوراً لنهضتنا، ومنهجاً لتجاوز محنتنا.

الثلاثية القرآنية.. منهج متكامل لمواجهة الأزمات:

إن المتأمل في آية ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يجد أنها تتضمن ثلاثية متكاملة، تشكل منهجاً شاملاً للتعامل مع الأزمات والخروج من المحن، منهجٌ يصلح لكل زمان ومكان، ولكل فردٍ وجماعةٍ وأمةٍ.

المرحلة الأولى / رفض اليأس والاستسلام:

«كَلَّا» في اللغة العربية أداة ردع وزجر، تستعمل لإبطال ما قبلها، ونفيه نفيًا قاطعًا، وعندما أطلقها موسى عليه السلام كان يردُّ بها على مقولة أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، فكانه يقول لهم: «كلا، لستم مدركين، كلا، لن يصل إليكم فرعون وجنوده، كلا، لن تهلكوا ولن تموتوا، كلا لكل أفكار العجز والخضوع والاستسلام»، هذه الـ «كَلَّا» القرآنية هي مفتاح النصر الأول؛ فلا يمكن لإنسان أن ينتصر وهو يعتقد بهزيمته، ولا يمكن لشعب أن يتحرر وهو مستسلمٌ في عقله وقلبه قبل جسده.

﴿كَلَّا﴾، وهي كلمة ردع وزجر للفكرة المتسللة إلى قلوب المؤمنين، لم تكن مجرد «لا» بسيطة، بل هي أقوى وأشد، فهي تقتلع جذور اليأس من أعماق النفس، وكأنه يقول: هذه الفكرة لا ينبغي أن تخطر على بالك أصلاً، في هذه الكلمة الموجزة تتجلى قوة الرفض المطلق للهزيمة، وإعلان الثورة على الاستسلام، إنها الضربة الأولى في معركة الروح ضدَّ سلطان الخوف.

في سوريا اليوم نحتاج إلى هذه الـ «كَلَّا» في كلِّ مجالات حياتنا، في مجال التعليم نقول: كلا، لن تبقى مدارسنا مدمرةً وتعليمنا متدهورًا، وفي مجال

المرحلة الثالثة/ اليقين بالهداية الإلهية:

الجزء الثالث من الثلاثية القرآنية هو «سَيِّهْدِينِ»، وهو تعبير عن ثقة مطلقة بأن الله تعالى سيهدي عبده إلى طريق النجاة والخلاص، ولاحظ دقة التعبير القرآني: لم يقل موسى «سينجيني» أو «سينصرني»، بل قال «سَيِّهْدِينِ»؛ لأنَّ الهداية أشمل وأعم، فالهداية تعني الإرشاد إلى الطريق الموصل للمقصود، وهذا يشمل النصر والنجاة واستشراق المستقبل ومعرفة الاستراتيجيات من صور الفرج والخلاص.

وحرف السين في «سَيِّهْدِينِ» يفيد الاستقبال القريب، وليس مثل «سوف» التي تفيد البعيد؛ أي أنَّ الهداية آتية عن قريب، وهذا يبعث الطمأنينة في النفس، ويزرع الأمل في القلب، ويشعر المؤمن بأنَّ الفرج قريب، وأنَّ الله لن يتركه في محنته طويلاً.

ولم يفيد الهداية بشيء محدد، فلم يقل: «سيهديني للنجاة» أو «سيهديني للطريق»، بل أطلقها لتشمل كل أنواع الهداية التي تليق بالمقام: هداية التوفيق، وهداية الإرشاد، وهداية الحفظ، وهداية النصر.

أما ما يسمى بنون الوقاية في «سَيِّهْدِينِ» فهي تضيء على الفعل طابعاً شخصياً حميماً، فالهداية موجهة إليه تحديداً، مخصوص بها، مستهدفة بعنايتها.

فالآية جمعت بين ثلاث مراحل متكاملة لمواجهة الحزن: الرفض (كلا)، ثم الثقة (إنَّ معي ربي)، ثم الاستشراق (سيهديني)، وهذه خريطة نفسية كاملة للخروج من الأزمات.

والم تأمل في سياق القصة يجد أنَّ هذه الكلمات الإيمانية لم تكن مجرد شعار، بل كانت مفتاحاً لتدخل إلهي عظيم، فما إن نطق بها موسى عليه السلام حتى جاء الوحي: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أُضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقْ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وكانَّ هذه الآية هي «كلمة السر» التي تفتح خزائن الرحمة الإلهية؛ فحين تجتمع نغمات اليقين الصادق في قلب العبد تتجاوب معها أركان الكون، وتترتب عليها معجزات لا تخطر على البال، وهذا أمر نراه في سير الأنبياء والصالحين عبر التاريخ؛ كلما بلغ اليقين ذروته في نفوسهم تجلت آيات الله في الكون من حولهم.

إلى فرعون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وعندما يستشعر الإنسان أنَّ الله معه يتلاشى الخوف من قلبه، وتزول الرهبة من نفسه، ويشعر بقوة لا تقاس بقوى البشر، وعزة لا تعادلها عزة المال أو السلطان.

ولاحظ كيف اختار اسم الربوبية تحديداً، وأضافه إلى نفسه؛ ليحيي في القلوب معاني الرعاية والحفظ والعناية الخاصة، وهذا يشعر بالدفء والألفة والأمان الشخصي.

في سوريا الجديدة نحتاج إلى استحضار هذه المعية الإلهية في كل شؤون حياتنا، نحتاج إلى يقين راسخ بأنَّ الله معنا، يسمعنا، يرى معاناتنا، يعلم أماننا، ولن يتخلى عنا ما دمنا متمسكين بحقنا، ساعين في الإصلاح والبناء، هذه المعية ليست شعاراً نرفعه، بل حقيقة نعيشها، ومنهج نتبعه، وسلوك نلتزم به، والله سبحانه وتعالى يجعل معيته الخاصة لفئات محددة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ولذلك، فإنَّ استحضار المعية الإلهية يتطلب منا العمل على تحقيق شروطها: الصبر، والتقوى، والإحسان، ولا يكفي أن نقول «إنَّ معي ربي» باللسان، بل يجب أن نسعى بجد لنكون من الصابرين المتقين المحسنين؛ لنستحق هذه المعية الخاصة، ولا شك أنَّ الشعب السوري قد أثبت عبر سنوات صراعه مع الاستبداد صبراً منقطع النظير، وتضحيات جسيمة، وثباتاً على المبادئ رغم كل الإغراءات والضغط، وهي صفات تؤهله بإذن الله تعالى لاستحقاق المعية الإلهية الخاصة.

نحتاج إلى يقين راسخ بأنَّ الله معنا، يسمعنا، يرى معاناتنا، يعلم أماننا، ولن يتخلى عنا ما دمنا متمسكين بحقنا، ساعين في الإصلاح والبناء، هذه المعية ليست شعاراً نرفعه، بل حقيقة نعيشها، ومنهج نتبعه، وسلوك نلتزم به

وللعقل رُشده، وتمنح المرء قوةً نفسيةً خارقةً تمكّنه من تجاوز أصعب المحنّ.

في المجال الاقتصادي والتنموي:

تواجه سوريا تحديات اقتصادية هائلة: بنىة تحتية مدمرة، اقتصادٌ منهَارٌ، بطالة مرتفعة، فقرٌ مدقعٌ، تضخمٌ ماليٌّ، وتركبة ثقيلة من الديون والالتزامات، في مواجهة هذه التحديات يمكن للآية الكريمة أن تكون منطلقاً لنهضة اقتصادية شاملة، تقوم على رفض واقع التخلف والتبعية، والثقة بما وهبنا الله من إمكانيات وقدرات، والسعي الدؤوب للتطوير والإصلاح.

نحتاج إلى أن نقول «كلاً» للنماذج الاقتصادية الفاشلة التي كبّلت الاقتصاد السوري لعقود: الاقتصاد الموجه، الاحتكار، الفساد، البيروقراطية، التبعية، ونحتاج إلى استحضار معية الله في جميع النشاطات الاقتصادية، من خلال الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية والقيم الأخلاقية في المعاملات المالية والتجارية، ونحتاج إلى الثقة بأن الله سيهدينا إلى نموذج اقتصادي متوازن، يجمع بين الكفاءة والعدالة، ويحقق التنمية المستدامة لسوريا وشعبها.

في المجال السياسي والإداري:

بعد عقود من الحكم الفردي والحزب الواحد تحتاج سوريا إلى بناء نظام سياسي جديد، يقوم على المشاركة الشعبية، والشورى والتعددية السياسية، وسيادة القانون، واحترام حقوق الإنسان، وهنا أيضاً يمكن للآية الكريمة أن تكون مرشداً ودليلاً.

نحتاج إلى أن نقول «كلاً» لكل أشكال الاستبداد والقمع والتسلط، ولكل المحاولات لإعادة إنتاج النظام القديم بثوب جديد، ونحتاج إلى استحضار معية الله في العمل السياسي والإداري من خلال الالتزام بقيم العدل والشورى والمساواة والحرية، وتطبيق مبدأ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ونحتاج إلى الثقة بأن الله سيهدينا إلى نظام سياسي وإداري يحقق مصلحة البلاد والعباد، ويضمن كرامة الإنسان وحرية وحقوقه.

في المجال الاجتماعي والثقافي:

تعرض النسيج الاجتماعي السوري لتمزق شديد خلال سنوات الصراع، وتأثرت الهوية الثقافية السورية بمحاولات التشويه والتحريف، وفي هذا

في سوريا اليوم نحتاج إلى هذا اليقين بأن الله سيهدينا إلى سبل النجاة من أزماتنا، وإلى طرق التغلب على تحدياتنا، وإلى وسائل بناء دولتنا الجديدة، وعلينا أن نوقن بأن الله سيهدينا إلى حلول لمشاكلنا مهما بدت معقدة، وإلى مخرج من أزماتنا مهما بدت مستعصية.

والهداية الإلهية تتجلى في صور متعددة: قد تكون إلهاماً لفكرة جديدة، أو توفيقاً لعمل صالح، أو تسديداً لرأي صائب، أو تيسيراً لأمر عسير، وقد تجلت هذه الهداية في تاريخ الشعب السوري عبر مراحل نضاله المختلفة، فرغم كل المؤامرات والمكائد، ورغم كل أشكال الدعم الخارجي للنظام الاستبدادي، وفق الله تعالى الشعب السوري ليجد طرقاً للصمود والاستمرار، ووسائل للمقاومة والنضال، حتى تمكّن في النهاية من إسقاط هذا النظام وكل حلفائه وتحقيق حلمه بالحرية والكرامة.

الآية منهج حياة:

في سوريا اليوم نحتاج إلى هذا اليقين بأن الله سيهدينا إلى سبل النجاة من أزماتنا، وإلى طرق التغلب على تحدياتنا، وإلى وسائل بناء دولتنا الجديدة، وعلينا أن نوقن بأن الله سيهدينا إلى حلول لمشاكلنا مهما بدت معقدة، وإلى مخرج من أزماتنا مهما بدت مستعصية

لكي تتحول آية ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ من نص يتلى إلى منهج حياة يطبق نحتاج إلى ترجمتها إلى خطوات عملية وتطبيقات واقعية في جميع مجالات الحياة.

في المجال النفسي:

في حالة سوريا لا بد أن نعترف بوجود تحديات نفسية هائلة يواجهها المواطن السوري بعد سنوات من الصراع والمعاناة: صدمات نفسية، فقدان أحبة، تشرد وتهجير، فقر وعوز، وغيرها من الجراح النفسية العميقة، في مواجهة كل هذه التحديات يمكن للآية الكريمة أن تكون بلسماً شافياً وعلاجاً ناجحاً، فهي تعيد للنفس توازنها، وللقلب سكينته،

الثلاثية المتكاملة

في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾



لذلك أدعو كلَّ سوريٍّ -بل كلَّ إنسان يتطلع إلى الحرية والكرامة- أن يجعل من هذه الآية الكريمة شعارًا دائمًا، ومنهج حياة، ودستورًا شاملاً، ونورًا يضيء الطريق في ظلمات اليأس، وبلسمًا يداوي الجراح في أوقات الألم، وسلاحًا يواجه تحديات الحياة ومصاعبها، فإنَّ النصر قريبٌ، وإنَّ الفرَج آتٍ، وإنَّ المستقبل مشرق بإذن الله.

المجال أيضًا تقدم الآية الكريمة منهجًا للإصلاح والتجديد، نحتاج إلى أن نقول «كلا» لكلِّ محاولات إشعال الفتنة بين مكونات المجتمع السوري، ولكلِّ دعوات الكراهية والعنف والتطرّف، ونحتاج إلى استحضار معية الله في العلاقات الاجتماعية، من خلال الالتزام بقيم التسامح والتعايش والتعاون والتكافل، ونحتاج إلى الثقة بأنَّ الله سيهدينا إلى استعادة اللحمة الوطنية، وتعزيز الهوية الثقافية السورية الأصيلة المتجذرة في الحضارة الإسلامية والعربية، والمنفتحة على كلِّ ما هو نافعٌ ومفيدٌ من الثقافات الأخرى.

نحتاج إلى أن نقول «كلا» لكلِّ محاولات إشعال الفتنة بين مكونات المجتمع السوري، ولكلِّ دعوات الكراهية والعنف والتطرّف، ونحتاج إلى استحضار معية الله في العلاقات الاجتماعية من خلال الالتزام بقيم التسامح والتعايش والتعاون والتكافل، ونحتاج إلى الثقة بأنَّ الله سيهدينا إلى استعادة اللحمة الوطنية، وتعزيز الهوية الثقافية السورية الأصيلة المتجذرة في الحضارة الإسلامية والعربية، والمنفتحة على كلِّ ما هو نافعٌ ومفيدٌ من الثقافات الأخرى

وفي الختام أكرّر للتأكيد من شاطئ البحر، حيث وقف موسى عليه السلام، إلى أرض سوريا، كلماتٍ قليلة، لكنها تحمل في طياتها معاني عظيمة، ودلالات عميقة، وقوة هائلة قادرة على تغيير واقع الأفراد والشعوب، وتحويل ما يبدو مستحيلًا إلى ممكن، إنَّ سوريا اليوم بعد أن تحررت من نظام استبداديٍّ جاثم على صدرها لنصف قرنٍ تقف على مفترق طرق حاسم، التحديّات كبيرة، والعقبات كثيرة، والمخاطر محدّقة، لكنَّ الإيمان أكبر، والإرادة أقوى، والعزيمة أمضى، ومنهج «كلا إنَّ مَعِيَ رَبِّي سيهدِين» هو الضمانة الحقيقية للنجاح والفلاح،



المرأة السورية قبل التحرير وبعده: نظرة إلى المستقبل

د. رغداء زيدان (*)

كانت المرأة السورية ومازالت ركناً أساساً في المجتمع السوري، وخلال الثورة السورية دفعت ثمنًا باهظًا بسبب رفضها لظلم النظام البائد، وكان لها إسهامها الكبير في هذا النصر، وعليها اليوم مسؤوليات كبيرة في البناء. ومع كثرة الحديث عن المرأة السورية ودورها في سورية الجديدة والتخوفات التي يبثها كثيرون عن حالها في ظل حكم إسلامي؛ فإن من المهم تجلية الأمور المتعلقة بها وبماضيها ودورها في المستقبل، وهذا المقال يحاول الإجابة عن هذه الأمور بطريقة علمية واقعية جريئة.

مدخل:

أشكال الرذيلة والتجهيل. والحمد لله، فقد عمّت الفرحة مدن سورية وبلداتها، وتداعى الشرفاء من كل مكان مبدئين استعدادًا للعمل وبناء دولة جديدة تحفظ فيها كرامة الإنسان وحقوقه، وتعلو فيها القيم والأخلاق، ويحفظ فيها الدين، ويسود فيها العدل والقانون.

والمرأة السورية التي كانت وما تزال ركناً أساساً في المجتمع السوري، لها إسهامها الكبير في هذا النصر، وعليها اليوم مسؤوليات كبيرة في البناء.

من الله على سورية بالنصر والفتح المبين، وخلصها من النظام الأسد الذي جثم على صدور السوريين والسوريات عقودًا طويلة، تاركًا خلفه مدناً وبلدات دمرها بالبراميل والصواريخ، ومؤسسات مهترئة ينخر فيها الفساد والمحسوبيات، وألامًا كبيرة من جراح الاعتقال والقتل وهدر الكرامة والحقوق، عدا عن دمار الأخلاق ومحاربة الأديان ونشر المخدرات وكل

(*) باحثة في قضايا الفكر والمجتمع.

الاعتقال والتعذيب:

ومن جانب آخر عانت المرأة السورية عامّة، والمحافظّة خاصّة، من فقدان الأمن في ظلّ نظام أمّني مخابراتي كان يحصي أنفاس السوريين والسوريات، ويحاسبهم على النوايا، وكم من امرأة اعتُقلت في ظلّ نظام الأسد فقط لكونها أختاً أو أمّاً أو ابنة لمطلوب لقوى الأمن المخابراتية، وبعضهنّ قضين سنوات طويلة في السجن، وتعرّضن لأشدّ أنواع التعذيب في معتقلات النظام. وتعدّ ذاكرة السوريين والسوريات بكثير من الصور والمشاهد من جميع المدن السورية والتي تُظهر وحشية هذا النظام، الذي لم يراعِ عرفاً ولا ديناً ولا أخلاقاً في تعامله مع النساء السوريات^(٢).

عانت المرأة السورية عامّة، والمحافظّة خاصّة، من فقدان الأمن في ظلّ نظام أمّني مخابراتي كان يحصي أنفاس السوريين والسوريات، ويحاسبهم على النوايا، وكم من امرأة اعتُقلت في ظلّ نظام الأسد فقط لكونها أختاً أو أمّاً أو ابنة لمطلوب لقوى الأمن المخابراتية

محاربة الحجاب والاعتداء على الأخلاق:

أما موضوع منع الحجاب والاعتداء على أخلاق المجتمع السوري فقد بدأ في ظلّ نظام الأسد الأب واستمر في حكم الابن، ففي ٢٩ أيلول ١٩٨١م هجمت مظاهرات ومظاهرات ما كان يسمى «سرايا الدفاع» التي يرأسها المجرم رفعت الأسد شقيق المقبور حافظ الأسد لينزعوا الحجاب عن رؤوس النساء في شوارع دمشق بالقوّة وبأوامر من حافظ أسد نفسه، واستمر منع الحجاب في مدارس دمشق سنوات طويلة؛ ممّا حرم كثيراً من الفتيات والنساء المحافظات الملتزمات من فرص التعليم أو العمل، واستمر هذا النهج في عهد القاتل الابن بشار، الذي أصدرت حكومته قراراً في تموز ٢٠١٠م بمنع

ومع كثرة الحديث عن المرأة السورية وأين يمكن أن يكون دورها في سورية الجديدة، والتخوفات التي يبثها كثيرون على وسائل التواصل الاجتماعي عن حالها في ظلّ حكم إسلامي الطابع؛ فإنّ من المهمّ جدّاً توضيح كيف عامل النظام البائد المرأة، وكيف استطاعت المرأة السورية أن تواجه تحديات الحرب، وما دورها وأولوياتها في معركة البناء اليوم، حتى تتمكن من تقديم توصيات يجب العمل عليها لمساعدة النساء وتحسين حياتهنّ، وتمكينهنّ من المساهمة في بناء الدولة وإدارتها.

وضع المرأة السورية في عهد النظام البائد قبل الثورة:

التهميش والإفقار وسلب الحقوق:

عانى السوريون والسوريات من سياسات التهميش والإفقار الممنهجة التي اتبعتها نظام الأسد البائد في سورية على مدى أكثر من خمسة عقود، فقد سلبهم حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية رجالاً ونساءً، وعمل على تقديم صورة ذهنية مشوّهة عن النساء السوريات وبخاصّة النساء المحافظات الملتزمات اللواتي قدمهنّ إعلام الأسد بصورة المرأة الجاهلة المقموعة، التي يسهل استغلالها وممارسة أشكال العنف والإقصاء بحقها، محملاً كلّ هذا على الدين والعادات والتقاليد، كما أظهرت إحصاءاته الرسمية أنّ نسبة مشاركة النساء في القوى العاملة الوطنية لا تتجاوز ١٣٪ من إجمالي القوى العاملة عام ٢٠١٠م^(١)، والإشكالية أنّ هذه الإحصاءات ليست دقيقة؛ كونها لا تشمل النساء في العمل المنزلي أو في الاقتصاد العائلي الرعائي أو في الدعم المجتمعي، مما يعني تجاهل القيمة الاقتصادية للعمل الذي تقوم به المرأة غير الموظّفة في مؤسسة رسمية، وبالتالي لا تحتسب مشاركتهن الاقتصادية ضمن القوى العاملة.

(١) مجموعة البنك الدولي: نسبة المشاركة في قوة العمل، الإناث (كنسبة مئوية من السكان من النساء في الفئة العمرية ١٥-٦٤) على الرابط: <https://n9.cl/21stl>. علماً أنّ البنك الدولي يعتمد على البيانات المستقاة من النظم الإحصائية الوطنية، مكتب الإحصاء المركزي.

(٢) وثّق كثير من السوريين والسوريات ما كان يجري في سجون النظام فترة الثمانينيات، وما كان يتعرّض له الرجال والنساء من تعذيب وحشي داخلها. من هؤلاء: «هبة الدباغ» التي وثّقت التعذيب الذي تعرّضت له في السجن بسبب رفضها الكشف عن مكان شقيقها الذي كان ناشطاً في مدينة حماة، وسطرته في كتاب عنوانه: «خمس دقائق وحسب، تسع سنوات في سجون سورية»، وهو منشور على الإنترنت.

على تفرغ المنطقة والنزوح منها قبيل اقتحامها، وكأسلوب من أساليب التعذيب والانتقام والترهيب. وقد أظهرت شهادات الناجيات من المعتقلات الأسدية مدى فظاعة ما تعرضن له من أساليب التعذيب وانتهاك الحرمات، وهو ما أكدته مقاطع الفيديو التي بُنت على مواقع التواصل الاجتماعي بعد عملية ردع العدوان، والتي أظهرت مشاهد من السجون التي كانت تعيش فيها النساء، والظروف السيئة التي كانت في تلك المعتقلات، منها غرفة مراقبة السجناء في سجن صيدنايا سيئ الصيت في ريف دمشق، وتظهر المشاهد نزلاء بالسجن بينهم نساء تتم مراقبتهم على مدار الساعة بشاشات عدّة مجمعة في غرفة للتحكم.

”
ذكرت تقارير حقوقية أنّ ما لا يقل عن ٢٨ ألفاً و٩٢٦ أنثى قتلن في سورية منذ آذار ٢٠١١م حتى آذار ٢٠٢٣م، معظمهن قُضين على يد أجهزة أمن النظام الأسد، منهن ١١٧ قُتلن تحت التعذيب، فيما ما تزال ١١ ألفاً و٢٠٣ نساء قيد الاعتقال أو الاحتجاز وقتها

تحمل مسؤولية إعالة الأسرة:

لم تكن سنوات الحرب وما تبعها من شتات وتشتت سهلة على المرأة السورية، فعدا عن مشاكلها المجتمعية التي كانت تعاني منها قبل الحرب فإنّ مشاكل جديدة برزت أمامها، فقد أدت الحرب إلى وفاة أعداد كبيرة من الذكور في سورية، ومع اختلاف تقدير أعداد تلك الوفيات بين جهة وأخرى، فإنّ كلّها يبين أنّ نسبة وفيات الذكور البالغين جرّاء القتال فاقت ٧٥٪ من مجموع الوفيات خلال سنوات الحرب، معظمهم من فئة الشباب^(٢)، ما يعني فقدان عدد كبير من النساء

المنقّبات من العمل في التعليم، أو دخول الجامعات والمدارس، حتى الشرعيّة منها^(١)، في محاولة لتصوير المنقّبات على أنّهنّ متطرّفات أو إرهابيات، رغم شيوع النقاب في كثير من مدن وبلدات سورية كلباس محلي معروف.

تنحية المرأة الملتزمة ومحاربتها:

عانت المرأة السورية الملتزمة من التمييز والإقصاء من قبل نظام الأسد، كما عانى الرجل الملتزم في ظلّ نظام لا أخلاقي كاره للدين، ومحتقر للمتدينين، لذلك لم يرَ السوريون والسوريّات نساء محجبات في مناصب عليا في الدولة إلا بعد ثورة ٢٠١١م، إذ عمد النظام على تطعيم طاقم حكمه الشكلي ببعض المحجّبات المواليات لظلمه، في محاولة للظهور بأنّه يحارب إرهابيين ولا يحارب الدين، ما تنفيه عبارات جنوده وميلشياته التي ملأت حيطان المدن السورية بعبارات الكفر وسب الذات الإلهية والدين، مهدّدة بحرق البلد ليبقى أسدهم للأبد، أو زعيمهم الخالد الذي أباده الشرفاء بفضل الله، في درس لكلّ فراعنة الأرض الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً، فالحمد لله أولاً وأخراً.

وضع المرأة في زمن الثورة:

القتل والإخفاء القسري:

ذكرت تقارير حقوقية^(٣) أنّ ما لا يقل عن ٢٨ ألفاً و٩٢٦ أنثى قتلن في سورية منذ آذار ٢٠١١م حتى آذار ٢٠٢٣م، معظمهن قُضين على يد أجهزة أمن النظام الأسد، منهن ١١٧ قُتلن تحت التعذيب، فيما ما تزال ١١ ألفاً و٢٠٣ نساء قيد الاعتقال أو الاحتجاز وقتها. وتحديث التقارير عن استخدام النظام الأسد العنف الجنسي ضدّ النساء أداة حرب وعقاب بهدف نشر الرعب وإجبار السكان

(١) قام وزير التعليم العالي في ١٨ تموز ٢٠١٠م بإصدار قرار بمنع دخول المنقّبات إلى حرم الجامعات السورية، بحجّة أنّ النقاب يتعارض مع القيم والتقاليد الجامعية. وعدم ترك الطلاب عرضة لأفكار وعادات متطرّفة برعمه. وكان وزير التربية قد نقل قبل شهر من ذلك ١٢٠٠ منقّبة من سلك التعليم إلى وزارة الزراعة والإدارة المحليّة والخدمات، نظراً «لعدم إمكانية قيامهن بدورهنّ التعليمي وهنّ منقّبات». ينظر: عساف عبود، حظر النقاب في الجامعات السورية، بي بي سي: <https://n9.cl/agb2u>.

(٢) الشبكة السورية لحقوق الإنسان، التقرير السنوي الثاني عشر عن الانتهاكات بحقّ الإناث في سورية، ٢٥-١١-٢٠٢٣م، على الرابط: <https://2u.pw/j9aeon6>، وينظر: لجنة التحقيق الدولية: نظام الأسد خلق في معتقلاته «شبكة عذاب» تشكّل جرائم ضدّ الإنسانية، أخبار الأمم المتحدة، على الرابط: <https://news.un.org/ar/story/2025/01/1138556>.

(٣) توقّفت الأمم المتحدة عن إحصاء عدد قتلى الحرب في سورية منذ يوليو/تموز ٢٠١٣م، وبرزت ذلك بصعوبة التأكّد من أعداد القتلى، ومن المهم الإشارة إلى أنّ جميع الجهات تعلن أنّها لم تستطع توثيق جميع الأسماء بسبب ظروف الحرب الصعبة في سورية؛ ينظر: مجموعة باحثين: التشتت القسري حالة الإنسان في سورية، التقرير الجغرافي، ص (٩). وينظر: موقع ميللت برس، أعداد قتلى الحرب السورية مذهلة.. ولا أحد يصدّق الأرقام المعلنة، فبراير/شباط/٢٠١٧م.

مجتمعي على مستوى الأفكار، بعض هذه المشاريع كانت تستهدف النساء خاصة، وباسم حقوق المرأة والدفاع عنها، كان هناك تسلسل لأفكار نسوية لها حمولات إيديولوجية معادية للدين ولقيم المجتمع، كانت تنفذ مشاريعها التغييرية تحت مسمى مساعدة النساء. بالتأكيد ليس كل من عمل في مجال قضايا النساء خلال سنوات الحرب كان يسعى لمثل هذه الأهداف، بل كان هناك منظمات ومؤسسات تسعى لدعم النساء ومساعدتهن حقيقة، وليس كل من نادى بدعم المرأة وحمائتها وتأمين حقوقها كان من هؤلاء، لكن كانت المرأة والأقليات محور اهتمام النسوية والعلمانية، وادعى بعضهم أن سورية شهدت منذ بداية القرن العشرين نموذجاً علمانياً ارتكز على فصل صارم بين الدين والدولة، وحصرت الدين في المساحة الخاصة، وأن الفاعلين سياسياً في سورية تقلبوا بصورة عامة أن بلادهم قد أمست دولة قومية علمانية لا دين لها^(٤)، وأن المرأة كانت تؤمن بالأفكار النسوية، لذلك فقد كانت النساء السوريات الفاعلات في الأربعينيات والخمسينيات غير محجبات، وكُنَّ يسعين للحصول على حقوقهن من المجتمع الذكوري بقوة وفاعلية. غير أن هذا التوصيف يغفل حقيقة أن المجتمع السوري كان وما يزال مجتمعاً محافظاً، فحتى من كان يتبنى أفكاراً تندرج ضمن باب العلمانية كان في سلوكه ومعتقداته لا يخرج عن الدين ولا يعاديه، وحتى النساء وقتها لم يكنن نسويات؛ فالفكر النسوي في حقيقته فضاء معرفي علماني يحاول إعادة تعريف الهوية الوجودية للذكر والأنثى على حد سواء، والنسوية ليست اتجاهاً خاصاً بالأنثى فقط، إنها تأخذ موقفاً من الموروث التاريخي الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي، وهو موقف يعني أحداث قطيعة كلية مع ذاك الموروث، بكل حوامله المفهومية والإيديولوجية التي أنتجت الاستحقاقات المعرفية التي يعيش الناس انعكاساتها التطبيقية

للمعيل سواء كان الزوج أو الأب أو الأخ. ومع الأخذ بعين الاعتبار نسبة المعتقلين والمغييبين قسرياً وأصحاب الإعاقة الدائمة الذين أصيبوا بالحرب من الذكور، وبالتالي لم يعد بإمكانهم العمل أو الإنفاق، وكذلك المهاجرين الذين ينتظرون لم الشمل؛ فقد حُمل ذلك كله المرأة السورية مسؤولية السعي للإنفاق على الأسرة، وتشير إحصائيات أممية إلى أن أكثر من ربع النساء في سورية بتن عام ٢٠١٤ م هنَّ المعيلات لأسرهن^(١)، ومع استمرار الحرب زادت هذه النسبة، دون وجود إحصائيات حقيقية تصوّر واقع المرأة الجديد الذي فرض عليها البحث عن عمل، والقيام بأعمال لم تعتد عليها، أو لم تمارسها من قبل^(٢). وقد عرّضت تحمّل مسؤولية الأسرة المرأة لصنوف من الاستغلال والابتزاز بأشكالها المختلفة، بدءاً من قبولها بزواج دون حقوق أو تسجيل قانوني، أو قبولها العمل بأجر ضعيف وساعات طويلة دون تأمين، هذا عدا عن تعرّضها للتحرّش والمضايقات أثناء العمل، وصولاً لقبولها بالقيام بأعمال أقل من قدراتها ولا تناسب تخصصها، خاصة للمتعلّقات، وقبول أو إجبار بعض النساء والفتيات على ممارسة مهن لا تتناسب مع قيم المجتمع أو عاداته^(٣). كل هذه التضحيات لم تمنع النساء السوريات - والمتلزمات منهنَّ خاصة - من النضال والعمل من أجل تخليص سورية من نظام الأسد وزبانيته، مع العمل على زيادة مهاراتهم وإمكاناتهم والحرص على العلم والتعلم، خاصة في المناطق التي كانت خارجة عن نظام الأسد، وفي مناطق الهجرة المتعدّدة.

الفكر النسوي ومحاولات التغلغل:

رافق سنوات الحرب ومآسيها بالنسبة للمرأة ظهور أفكار نسوية وعلمانية مدعومة بمنظمات ومؤسسات نفذت مشاريعها في مناطق سورية المختلفة، في محاولة لنشر العلمانية، وإحداث تغيير

(١) ذكرت إحصائيات أن ١٤٥ ألف امرأة بتنَّ هنَّ المعيلات الوحيدات لأسرهنَّ في سورية حتى عام ٢٠١٦م. ينظر: ربي حكمت وجنيفر ميكيل: أكثر من مجرد أرقام، صندوق الأمم المتحدة للسكان، ٢٠١٦م، ص (٧).

(٢) السوريات أسيرات الأجر الزهيد: الحرب حوّلتهن إلى معيلات للأسر، عدنان عبد الرزاق، العربي الجديد، ٨ مارس ٢٠٢٣م، على الرابط: <https://2u.pw/04yCX0>

(٣) ينظر تقرير: عمل النساء بعد الساعة ١٢ ليلاً يتحوّل إلى ظاهرة عادية في مناطق سيطرة الأسد، تلفزيون حلب اليوم، ٤ / ٢ / ٢٠٢٣م، على الرابط: <https://halabtodaytv.net/archives/239609>، وينظر: يشكلن ٨٥% من سوق العمل.. لماذا تشغل السوريات معظم فرص العمل بمناطق

سيطرة النظام؟، الجزيرة نت، ١٢ / ٢ / ٢٠٢٣م، على الرابط: <https://2u.pw/sgOW1VOV>.

(٤) أكثر دينيَّة لكن لا تزال علمانيَّة بعدد؟ العلاقة المتغيرة بين العلماني والديني في سورية، لين خطيب، ترجمة حمزة عامر، معهد العالم للدراسات، ١٣ آب / أغسطس ٢٠١٨م: <http://alaalam.org/ar/politics-ar/syria-ar/item/730-738130818.html>

معادياً لطيفٍ واسعٍ من الشعب والمجتمع عندما أنكر الدين ورفض أحكامه الخاصة بالمرأة، فتمّ رفض طروحاته ومقاومتها من قبل أطراف واسعة من الناس. دعاة النسوية والعلمانية في سورية يقدمونها على أنها خيار أخلاقي قيم، يمجّد المرأة بكونها إنساناً حراً، ويعلي من قيم الحرّية والمساواة والعدالة، وهي صورة جميلة مثالية، يجب أن تكون نتيجتها احترام المرأة وخياراتها، والثقة بعقلها وتفكيرها، إلا أنهم يتعاملون مع المرأة المحافظة على أنها ضدّ الحرّية وضدّ المساواة وضدّ العدالة بقطعية لا تقبل النقاش، ولا يتصورون أن يكون عند المحافظات فهم مختلف للحرّية أو للعدالة أو للمساواة التي احتكروا تفسيرها وطريقة تطبيقها.

عندما استلم حزب البعث السلطة - وهو الذي يتبنّى فكراً قومياً كان يعدّ الدين رجعيةً وخرافة - روج لعلمانيته في الأوساط الدولية والداخلية؛ ليظهر بمظهر حامى المرأة والأقليات، وليظهر بمظهر من يحارب الإرهاب الديني المتطرّف المتمثّل بالإسلام السياسي الذي يشكل بعبءاً يتنامى ويتضخم عند كثير من الدول

في حياتهم^(١). وعندما استلم حزب البعث السلطة - وهو الذي يتبنّى فكراً قومياً كان يعدّ الدين رجعيةً وخرافة من الماضي - روج لعلمانيته في الأوساط الدولية والداخلية ليظهر بمظهر حامى المرأة والأقليات، وليظهر بمظهر من يحارب الإرهاب الديني المتطرّف المتمثّل بالإسلام السياسي الذي يشكل بعبءاً يتنامى ويتضخم عند كثير من الدول^(٢).

الفكر النسوي يسعى لفرض رؤية حياتية تشمل معظم نواحي الحياة إضافة إلى قضايا المرأة، وباسم العلمانية وحقوق المرأة يعمد الفكر النسوي إلى إعادة تشكيل هوية المرأة والمجتمع وقولته بكلّ ما يحمله من موروث ديني وثقافي حسب الرؤية الحداثية والمفاهيم العلمانية النسوية وأسلوب الحياة الخاص بها. لذلك يتم التركيز على مواضيع الحجاب واللغة والدور الاجتماعي والهوية الجنسية والجنسانية^(٤)، ولا يتم التركيز على قضايا إقصاء المحافظات المتديّبات أو محاربة خياراتهن في الحياة، ولا يتم الحديث عن استغلال المرأة وتشبيثها^(٥) والمتاجرة بها بحجّة الحرّية، ولا تتم حماية الأسرة ولا تقدير الأمومة بحجّة أنها قيد واستعباد للمرأة. لذلك كان الفكر النسوي فكراً

(١) الجمعيات الإسلامية ودورها الاجتماعي والسياسي في سورية، رعداء زيدان، مجلة قلمون، العددان ١٣ و١٤، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٠م، ص (١٩) وما بعد. وفي التاريخ السوري حوادث كثيرة تظهر تأثير المجتمع السوري وقدرته على مقاومة الأفكار التي تتنافر مع قيمه من مثل حادثة جمعية «نقطة الحليب»، ففي صيف عام ١٩٤٤م اصطدمت جمعية الغراء الإسلامية مع جمعية «نقطة الحليب» النسائية، التي ضمّت نساءً مسيحيات ومسلمات من أهل دمشق، وكان بينهنّ زوجات سياسيين، وأهم نشاطات تلك الجمعية جمع الحليب وتعليقه وتوزيعه على فقراء الأطفال وأيتامهم، وكانت تقيم حفلاً سنوياً لجمع التبرعات، وقرّرت إقامة حفلها ذلك العام في نادي الضباط الفرنسيين بدمشق، مما أثار رجال الجمعية الغراء ودعوا إلى إضراب استجاب له دمشق بأكملها، ولم يستغ الناس دخول النساء إلى نادي الضباط الفرنسيين، فتحرّكت الغيرة الوطنية والدينية وقامت مظاهرات تطوّرت إلى فوضى عامّة، تدخلت فيها قوات الأمن وأطلقت الرصاص على المتظاهرين، مما أدى إلى مقتل عدد منهم، فامتدت الاضطرابات إلى حلب وحمص وحماة ومدن سورية أخرى. ينظر: مذكرات أكرم الحوراني، ص (٣١٠-٣١٢).

(٢) ينظر: التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي، حزيران ١٩٨٢م.

(٣) الكذبة الكبرى علمانية نظام الأسد، علاء الدين الخطيب، موقع مرصد مينا، ١٨ / ١١ / ٢٠١٨م: <https://www.infosalam.com/syria/syria-studies/fallacy-assad-regime-secular>

(٤) المقصود بالدور الاجتماعي: الأدوار التي يقوم بها كلّ من الجنسين في المجتمع، وبحسب الفكر النسوي فإنها أدوار تشكّلها الظروف الاجتماعية، وليس الاختلاف البيولوجي. فعلى سبيل المثال: إذا كانت تربية الأطفال وأعباء العمل المنزلي مرتبطة تقليدياً بالمرأة فإن ذلك ليس له علاقة بتكوينها البيولوجي كامراً؛ إذ إنّ هذه الأدوار يمكن أن يقوم بها الرجل. ينظر: المبادرة الفلسطينية لتعميق الحوار العالمي والديمقراطية «مفتاح»، مسرد مفاهيم ومصطلحات النوع الاجتماعي، رام الله، حزيران ٢٠٠٦م، ص (١٠). أما الهوية الجنسية والجنسانية: فوفق تعريف الأمم المتحدة هناك فرق واختلاف بين مفهوم الجنس والجنسانية. فالجنس يحيل إلى مجموع الخصائص البيولوجية التي تقسم البشر إلى إناث وذكور. أما الجنسانية فتضم الخصائص البيولوجية المميزة بين الذكر والأنثى، والخصائص الاجتماعية المميزة بين الرجل والمرأة، أي الهوية الجنسية والنوعية التي تتأثر بالتفاعل بين عوامل بيولوجية واجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية وقانونية وتاريخية ودينية وروحانية. وقد نتج عن مفهوم الجنسانية مجموعة من المفاهيم، كفصل التوجّه الجنسي عن الهوية الجنسية للإيحاء بأنهما شيان مختلفان ويمكن الفصل بينهما، وللتأكيد على أنّ ميل الشخص الجنسي سواء للذكور أو الإناث لا يشترط أن يتوافق مع تركيبه البيولوجي. أما الهوية الجنسية فتصاغ في البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد، ومن نتائج هذه الأفكار: انتشار الشذوذ بين الرجال والنساء، والتفكك الأسري والمجتمع الذي تعاني منه المجتمعات. ينظر: الأمم المتحدة: مبادئ توجيهية في سبيل صياغة شاملة جنسائياً باللغة العربية، على الرابط: <https://www.un.org/ar/gender-inclusive-language/guidelines.shtml>

(٥) أي جعلها شيئاً خاضعاً لصيغ الكمية والإجراءات العقلانية الأخرى التي تتعامل مع الأشياء وليس الإنسان. للتوسّع حول ذلك يمكن الرجوع لكتابات عبد الوهاب المسيري حول الموضوع، ومنها: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (٥/٢).

الاحتياجات الأكثر إلحاحًا للمرأة السورية بعد التحرير:

- ١ تحسين الوضع الاقتصادي والمعاشي للمرأة وضمان العيش الكريم
- ٢ مساعدة النساء على تجاوز آلام الماضي والتحفيز للبدء من جديد
- ٣ التزكية الإيمانية والمعرفة الشرعية الصحيحة
- ٤ التثقيف والتوعية بعد سنوات التجهيل والتعتيم
- ٥ تطوير المهارات من أجل العمل والبناء والمساهمة في إدارة البلاد
- ٦ الحماية وحفظ الحقوق التي شرعها لها الإسلام والفطرة السليمة

الحجاب على غير المحجبات، أو ستمنع النساء من التعلّم والعمل أو المشاركة في الحياة وشؤونها، وهو ما لم يحدث ولن يحدث، وأكبر دليل على ذلك أنّ النساء في كلّ المناطق السورية ما زلن يعملن ويخرجن من بيوتهن بحريّة، ويلبسن ما يحلو لهن دون أن يتعرّض لهنّ أحد، بل إنّ المناطق التي كانت خارجة عن سيطرة نظام الأسد قبل التحرير كانت النساء فيها يعملن ويدرسن ويشاركن في الحياة العامة بكلّ حريّة وبفاعلية كبيرة، ودون تدخل من أي سلطة كانت موجودة في تلك المناطق. لكن يبدو أنّ المبالغة في إظهار مثل هذه المخاوف التي لا أصل لها لا يهدف لحماية المرأة السورية، بل له أهداف أخرى تتعلّق بالسيطرة والرغبة في تعميم النموذج الغربي وفرض الثقافة الغربية الاستعمارية على الشعوب. ومن جانب آخر فليس كلّ ما يشغل السوريين والسوريات اليوم موضوع فرض المظاهر الإسلامية عليهم؛ لأنّ البلد فيه من المشاكل الكثير الذي يحتاج لحل، والشعب السوري بمجمله شعب محافظ، لا يجد في المظاهر المحافظة قيداً، بل يجد القيد في فرض مظاهر التغريب عليه، كما كان يفعل نظام الأسد البائد.

المخاوف الغربية العلمانية بعد التحرير، وما خلف هذه المخاوف:

منذ سقوط نظام الأسد البائد وهروب المجرم بشار الأسد في ٨ كانون الأول ٢٠٢٤م، زار كثير من السياسيين الغربيين سورية، بدعوى دعم استقرار المنطقة وتعزيز الانتقال السياسي السلمي للسلطة، وفتح صفحة جديدة من العلاقات السياسية مع الإدارة السورية الجديدة، وكانت أبرز هذه الزيارات زيارة وزيرة خارجية ألمانيا ووزير خارجية فرنسا في ٣ كانون الثاني الماضي. وكان اللافت تركّز الجدل في الصحافة الألمانية والعالمية حول المظاهر الشكلية، مثل مسألة عدم مصافحة الرئيس أحمد الشرع لوزيرة الخارجية الألمانية، ما وُصف بأنّه حالة من الترقّب الشديد داخل المجتمع الأوروبي تصل إلى حدّ التربّص بحكّام سورية الجدد وطريقة تعاملهم مع المرأة والأقليات^(١). وما نزال نسمع مثل هذه التصريحات، سواء من غربيين أو من علمانيين محليين وعرب وأجانب، والتي تركّز على الخوف على حرية المرأة في ظلّ حكم إسلامي متوقع في سورية، خاصّة حرّيتها في لبس ما تريد، وحرّيتها في التنقل أو العمل وغير ذلك. وكأنّ الإدارة الجديدة ستفرض

(١) ينظر: حكاية المصافحة ودلالاتها، نهاد ذكي، الجزيرة نت، على الرابط: <https://2u.pw/AhF0e78U>.

وأخلاقه ودينه، فالمناطق التي كانت تحت سيطرة النظام البائد كانت مغيّبة تمامًا عن أي نشاط اجتماعي أو فكري أو مدني، مما جعل الفارق بين المناطق التي كانت خارجة عن سيطرة النظام والمناطق التي كانت تحت سيطرته واضحًا للعيان.

تشبّت نشاط الجهود النسائية وضعف الدعم بأشكاله:

بدأت كثير من النساء المحافظات العمل في المناطق التي كان يسيطر عليها النظام البائد بعد تحريرها بفضل الله، لكنها ما تزال جهودًا فردية، ليس فيها تنسيق ولا تنظيم ممنهج، ومع غياب الإعلان عن نشاط النساء المتزمات المحافظات اللواتي صادفت الكثيرات منهن في سورية بعد التحرير، وقد نزلن للميدان من أجل العمل مع النساء والشباب، تبقى هذه النشاطات محدودة تعتمد على الجهود الخاصة دون وجود دعم حقيقي مؤسسي أو إعلامي. وبالمقابل بدأت تجمعات نسوية عملها في المناطق المحررة حديثًا، وتمّ عقد أول مؤتمر للحركة السياسية النسوية في دمشق، وحضره مجموعة كبيرة من النساء السوريات، وكان هناك تركيز على مشاركة نساء محافظات ضمن المؤتمر^(١).

ضعف المشاريع التي تهدف لدعم المرأة:

رغم وجود حالة من الاهتمام بوضع المرأة في ظلّ الإدارة الجديدة، ما تزال منظمات المجتمع المدني المحليّة والخارجية وأطراف دولية أخرى كلّها تركز على لباس المرأة، والخوف من فرض اللباس الشرعي عليها أو تقييد حريتها، وبعضها يركز على موضوع مشاركتها السياسية، لكن لم أجد أيّ بوادر لمشاريع من قبل هذه المنظمات تستهدف النساء أو تسعى لتحسين حياتهن وحالتهن الاقتصادية، ولم أجد كذلك مشاريع تهدف لمساعدتهن على تجاوز آلام الفقد، خاصة أرامل الشهداء أو أمّهات المفقودين والمعتقلين.

ومن هنا يجب العمل على رفع سوية المرأة بالطريقة التي يمكنها بها أن ترسم خطوط مستقبل بلدها بالتعاون مع الرجل؛ ما يعطيها ثقة بالنفس، ويلزمها بأن تكون قادرة على امتلاك الأدوات التي ستساعدتها في ذلك من علم وعمل ومعرفة وأخلاق.

أبرز التحديات التي تقف أمام المرأة السورية اليوم:

أدرت كثير من النساء السوريات اليوم إيجابيات الثورة السورية، رغم كلّ المعاناة التي عشنا خلالها، وهناك اعتراف من الرجال السوريين بأهمية دور المرأة، وأهمية القدرات التي تحملها، والكلّ يدرك أنّ هناك تحديات كثيرة لبناء البلد من جديد، سواء كانت تحديات ثقافية، أو اقتصادية أو سياسية أو مهارية، ولعلّ أهم هذه التحديات:

الحالة الاقتصادية:

ما يزال الوضع الاقتصادي ضاغطًا بقوة في سورية؛ فالنظام البائد ترك البلاد في حالة يرثى لها، وأدت الحرب التي استمرت ١٤ عامًا إلى انهيار الاقتصاد السوري، وجعلت نحو ٩٠٪ من الشعب السوري تحت خط الفقر. لكن برزت طاقة أمل وتفاؤل بالمستقبل بعد التحرير كانت غائبة قبله، وساد جو من الارتياح النفسي للتخلص من سطوة آل الأسد الأمنية الخانقة، وبدأت كثير من النساء بالتفكير بدورهن في بناء سورية الجديدة. ومن خلال لقاءاتي مع سيدات في دمشق ومحيطها كان هذا التفاؤل واضحًا، وقد قالت لي إحدهن: الحمد لله تخلصنا من الأسد ومن الكبتاغون، وقد كنّا قد وصلنا لحافة اليأس، ولم نكن نجد أي وسيلة للخروج من هذه الحفرة البائسة التي وقعنا فيها، الآن وبعد انهيار هاتين العقبتين كلّ شيء سهل بإذن الله. لكن يبدو أنّ التحدي الاقتصادي من أبرز التحديات التي تقف أمام المرأة السورية التي باتت مسؤولة عن تأمين لقمة العيش، وهي بحاجة لمشاريع تمكّنها من العمل بشرف وكرامة بعيدًا عن الاستغلال، حتى تستطيع المشاركة في بناء بلدها.

الحالة الاجتماعية:

من التحديات التي برزت بعد سقوط نظام الأسد: اكتشاف حجم الشرخ الاجتماعي الذي عمّقه سياسات النظام البائد، والتي جعلت موضوع الأمن الاجتماعي والسلم الأهلي على رأس الأولويات المطلوب العمل عليها في سورية اليوم. وكذلك موضوع غرس الوعي بأهمية مشاركة المرأة في الشأن العام بما يتوافق مع الرؤية الإسلامية لهذا الدور، والتي تجعل المرأة مسؤولة عن أسرتهن وعن محيطها، وتحملها مهمة الحفاظ على قيم المجتمع

(١) نساء سورية سيسعين للمشاركة في مراكز القرار وصولاً للمناصفة، القدس العربي، ٢٠٢٥م/١٨/٢٠٢٥م 3Enxop8C https://2u.pw/

٢. العمل على تفعيل دور الكفووات من النساء المحافظات في مواقع صنع القرار، ليكنّ الناطقات باسم النساء السوريات المعبرّات عن تطلعاتهنّ، ولتقديم صورة صحيحة عن المرأة السورية الفاعلة المعتزّة بدينها، والمحافضة على مجتمعتها وأسرتها.

٣. تصميم برامج تدريب وتأهيل لرفع القدرات والمهارات عند النساء فيما يخصّ التربية والتزكية والاقتصاد والسياسة وفق الرؤية الإسلامية، بعيداً عن الفكر النسوي المشبع بالأفكار المعادية للمجتمع ودينه وقيمه.

٤. تصميم برامج تزكية وتنقيف شرعي ودعم نفسي وإرشاد أسري وتربوي توجّه للنساء بأسلوب لطيف صحيح واع، يخاطب العقول والقلوب، ويهدف لحماية الأسرة والمجتمع ويدعم السلم المجتمعي، ويصحّح الأفكار المغلوطة حول المرأة ومكانتها ومسؤولياتها في الإسلام.

وأخيراً:

هناك واجب على السوريين والسوريات -خاصّة المسلمين والمسلمات منهم- لدراسة مشكلات المجتمع، ومنها مشكلات المرأة السورية، ودراسة الحلول المستمّدة لها من القرآن والسنة، والتي تحقّق الرؤية الإسلامية لمهمّة الرجل والمرأة في الحياة وهي العمران والاستخلاف بعيداً عن الأسر المعرفي الذي يمارس على الفكر والرؤية الإسلامية للكون والحياة، والتي تجعل المعيار المعرفي الغربي أساساً وقاعدة وأسلوب حياة، ولا ينبغي التعامي عن مشكلاتنا -وخاصة ما يتعلّق بالنساء- لكن في الوقت نفسه لا ينبغي أن يكون العلاج ذاته مشكلة، أو أن يكون الحلّ غير واقعي أو غير قابل للتطبيق، أو يكون متأثراً بأفكار وتشخيصات عليها كثير من الملاحظات التي تظهر تطرّفها وتداعياتها الكثيرة الهادمة لا البانية.

يبدو التحدي الاقتصادي من أبرز التحديات التي تقف أمام المرأة السورية التي باتت مسؤولة عن تأمين لقمة العيش، وهي بحاجة لمشاريع تمكّنها من العمل بشرف وكرامة بعيداً عن الاستغلال، حتى تستطيع المشاركة في بناء بلدها

الاحتياجات الأكثر إلحاحاً:

سورية بلد مدمر، منهار اقتصادياً، والنظام البائد لم يترك في سورية شيئاً إلا أفسده، حتى الأخلاق والذمم، لهذا تتنوع الاحتياجات وتتكاثر بالنسبة للنساء، ولعل أهمها:

« تحسين الوضع الاقتصادي والمعاشي للمرأة، بما يضمن لها -ولو بالحد الأدنى- توفر اللوازم الضرورية لحياة كريمة.

« الدعم النفسي ومساعدة النساء على تجاوز آلم الماضي وآلم الفقد والشكل والترمل، وتحفيزهن للبدء من جديد.

« التزكية الإيمانية والمعرفة الشرعية الصحيحة بعد سنوات الفساد والانحلال الأخلاقي.

« التثقيف والتوعية بعد سنوات التجهيل والتعتيم، حتى لا يقعن فريسة سهلة بيد أصحاب المشاريع الهدامة للأسرة والمجتمع.

« تطوير المهارات وتنمية الملكات والقدرات من أجل العمل والبناء والمساهمة في إدارة البلاد.

« الحماية وحفظ الحقوق التي شرعها لها الإسلام والتي يقرّها أصحاب الفطر السليمة، وقوننة هذه الحقوق، وتأمين تطبيقها التطبيق الصحيح.

خط العمل المقترحة:

١. تأسيس تكتّل نسائي أو تكتّلات نسائية تنتهج النهج الإسلامي الصحيح، مدعومة وممولة توجّه للنساء في كلّ المناطق السورية، بهدف دعمهنّ وتنمية قدراتهنّ شرعياً واقتصادياً ومهاريّاً، والعمل على تجهيز قاعدة بيانات فيها معلومات عن النساء المحافظات الفاعلات في المجتمع بهدف تنظيم الجهود والمشاريع الموجهة للنساء، واستثمار تلك القدرات الاستثمار الفاعل المثمر في إدارة الدولة ومؤسساتها.



دعوة

الحسبة ودورها في حماية الأسرة

أ. جهاد بن عبد الوهاب خيتي^(١)

للقيام بالحسبة دورٌ مهمٌ في صلاح المجتمع وسلامته ونجاته، ومن ميادينها التي يغفل عنها كثير من الناس أو لا يولونها حقها: الأسرة، فما أهمية الحسبة في نطاق الأسرة؟ وما عواقب إهمالها؟ وما المنكرات التي تنتشر في نطاق الأسرة؟ وكيف يكون إنكارها؟ وهل هناك خصوصية لطريقة إنكار المنكر بين الأقارب؟ هذا ما سيجيب عنه هذا المقال

مدخل:

لَا يَتَّهَوُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿
[المائدة: ٧٨-٧٩].

ولذا فإن من أوجب الواجبات على المسلم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويعظم الوجوب إذا رأى المنكر أو علم به، (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)^(٢).

تعريف الحسبة:

الحسبة هي القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣)، ومتوليها هو المحتسب، وهو الغيور الذي يقوم بتغيير المنكر وإقامة المعروف

من أعظم سمات هذه الأمة وخصائصها وأركان دينها: قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جعله الله تعالي دليلاً على خيريتها، فقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقدم ذكره في هذا المقام على الإيمان بالله لأن «الموجب لهذه الخيرية هو كونهم أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير»^(١).

وقد ذم الله سبحانه الأمم السابقة بسبب تركهم القيام بهذا الأمر العظيم، فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا

(*) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

(١) التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي (١٥٨/٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩).

(٣) قال الماوردي في (الأحكام السلطانية، ص: ٣٤٩): «الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله».

ثمة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فسينشأ الفرد في هذه الأسرة على حال من الجهل وتشرب الفساد بحيث (لا يعرفُ معروفًا، ولا يُنكرُ منكرًا، إلا ما أُشربَ من هَوَاهُ) (٣).

وإذا وُجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التربية والتعليم فسينشأ أفرادها على الخير، ويتشكّل فيهم الوعي الديني والسلوكي ومراقبة الله عزّ وجلّ، قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، قال البغوي: «مروهم بالخير وانهههم عن الشر وعلموهم وأدبُوهم، تقوهم بذلك نارًا» (٤)، وقال السعدي: «وقاية الأهل والأولاد: بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيمن يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه» (٥).

٢. أن الأسرة هي نواة تكوين المجتمع وأساس استقراره، تؤثر فيه وتتأثر به؛ فإن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع، كما أن الأسرة على اتصال بالمجتمع من خلال الأقارب من أنسباء وأصهار، ومن خلال الجيران؛ فإذا لم يعمل بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ما يكون في الأسرة من تقصير في الخير وعمل بالشر؛ سيستمر، ثم إنه لن يبقى قاصرًا عليها، بل سيتسرب إلى محيطها ويؤثر فيه، وبدل أن تكون الأسرة لبنة بناء للمجتمع ستكون عامل هدم فيه.

٣. أن الحسبة في نطاق الأسرة تحفظها من الانهيار؛ فهي وسيلة للتقويم والمراقبة، ولضمان بقاء المعروف وانتفاء المنكر، وبذلك تكون الأسرة سفينة النجاة لأفرادها، قال رسول الله ﷺ: (مثلُ القائم على حدودِ الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا) (٦). وهذا المثل ليس خاصًا بالمجتمع، بل ينطبق على الأسرة كذلك؛

دون تكليف من أحد، وإنما دافعه في ذلك براءة الذمة ورجاء المثوبة من عند الله.

لكن شاع في التاريخ الإسلامي أن يُراد بالحسبة تلك الوظيفة التي يكلف بموجبها ولي الأمر من يراه مناسبًا من المسلمين للقيام بتغيير المنكر وإقامة المعروف، قال ابن خلدون في تعريفها: «أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له» (١).

وكلامنا في هذا المقال ينصرف بالدرجة الأولى إلى المحتسب المتطوع الذي هو كل واحد من المسلمين، ولا سيما أننا نتحدث عن الحسبة في دائرة خاصة وهي الأسرة.

الحسبة هي القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومتوليها هو المحتسب، وهو إما متطوع، أو موظف من قبل الدولة ويسمى المحتسب متولي الحسبة أو والي الحسبة

المراد بالأسرة:

المقصود بها هنا: الأسرة بالمفهوم الواسع، التي تشمل الأسرة النواة التي تنشأ برابطة زوجية بين رجل وامرأة، ثم يتفرع عنها الأولاد، والتي تظل على صلة وثيقة بالأسرة الممتدة المكوّنة من أصول الزوجين من أجداد وجدّات، والحواشي من إخوة وأخوات، والقرابة القريبة من الأحفاد والأسباط، والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم (٢).

أهمية الحسبة في نطاق الأسرة:

من ميادين الحسبة: ما يكون في نطاق الأسرة، وهو على قدر كبير من الأهمية، وإهماله فيه خطر عظيم على الأسرة أولاً ثم على المجتمع؛ وذلك لأمر:

١. أن الأسرة هي الحاضنة التي تتشكّل فيها هوية أفرادها، ومعالم شخصيتهم الدينية والقيمية والأخلاقية والنفسية والعاطفية، فإذا لم يكن

(١) المقدمّة (١/٢٨٠-٢٨١).

(٢) يُنظر: الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، أ.د. وهبة الزحيلي، ص (٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١).

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن (١٢٢/٥).

(٥) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص (٨٧٤).

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

عن جهل أو عمد، وغير ذلك من التفاصيل؛ ممّا يعظّم المسؤولية على من يطلع على هذه المنكرات. الثانية: أنّ الناس في الغالب لا يقبلون النصيحة إلاّ ممن يعرفونهم ويثقون بهم، ولهذا فالأقارب أولى الناس ببذل النصيحة، وهم أولى باليد والسلطة.

٦. أنّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأقارب والقيام به في الأبعد يعود على النفاق، والكيل بمكيالين، والله تعالى يقول مستنكراً على بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، كما أنّه يعني الرضا به بنوع من أنواع الرضا، وصاحبه يخشى عليه من الدخول في هذا الوعيد الذي ذكره النبي ﷺ بقوله: (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَيَتَدَلَّقُ أَقْتَابَهُ فِي النَّارِ، فَيَدورُ كَمَا يَدورُ الْحَمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ أَمْرِكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيَهُ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيَهُ) (٣).

أمثلة للمنكرات في نطاق الأسرة:

هناك عدد من المنكرات التي تنتشر في نطاق الأسرة، وقد تكون جزءاً من حياتها اليومية، والتي تستدعي التدخل لإنكارها بالطرق المعروفة في إنكار المنكر والتي ذكرها العلماء وسأتي لذكرها لاحقاً.

والمنكرات التي تنتشر في نطاق الأسرة كثيرة، لكن يمكن إجمالها في أربعة عناوين عامّة جامعة لا يكاد يخرج عنها إلاّ القليل.

المنكر الأول: سوء العشرة بين الزوجين وتقصير بعضهما في حقوق بعض:

ومن صور المنكرات التي تدرج تحت هذا العنوان العريض:

١. التعدي على الحقوق أو التقصير في أدائها، وهذا التعدي بآبئه عريض لا يتسع المقام لذكر أمثلته كلّها، لكن من أبرزها: تقصير كل من الزوجين في مهامّه ومسؤولياته، وتقصير الزوج في النفقة

فهي مجتمع صغير متكامل، ويرتبط بغيره من المجتمعات الصغيرة (الأسر الأخرى)، والتي تكوّن بمجموعها المجتمع، ففي القيام بالحسبة صلاح للأسرة والمجتمع، وفي تركها هلاك لها وللمجتمع.

الحسبة في نطاق الأسرة تحفظها من الانهيار؛ فهي وسيلة للتقويم والمراقبة، وضمنان بقاء المعروف وانتفاء المنكر؛ وبذلك تكون الأسرة سفينة النجاة لأفرادها، وللمجتمع من بعدهم

٤. أنّ من يضيّع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دائرته القريبة فهو لما بعدها أضيع، فمسؤولية الأمر بالمعروف وتغيير المنكرات التي يقوم بها بعض أفراد الأسرة تقع بالدرجة الأولى على أقاربهم، قال الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال ﷺ: (كَلَّمَكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا) (١).

كما أنّ ترك الإنكار على الأسرة يعتبر من الغش للرعية والمسؤولية الملقاة على عاتق المسؤول سواء كان رجلاً أو امرأة، قال النبي ﷺ: (مَا مِنْ عِيْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ -يَوْمَ يَمُوتُ- وَهُوَ غَاشٍ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) (٢).

٥. أنّ الحسبة في نطاق الأسرة فيها ميزتان:

الأولى: أنّ هناك جانباً خفياً من المنكرات التي تحصل في الأسرة ومحيطها لا يطلع عليها في الغالب إلاّ بعض أفراد الأسرة أو أقاربهم أو جيرانهم، وإهمال الحسبة في هذه المنكرات ممّن يطلع عليها يعني بقاءها واستفحالها وتأثيرها في كافة أفراد الأسرة، وانتقالها إلى المجتمع نتيجة التعايش الطبيعي بين الأسر، وتوريثها للأجيال القادمة. وكلّما ازداد القرب ازدادت المسؤولية؛ فإنّ القريب أصق بقريبه وأكثر اطلاعاً على ما يقع منه من منكرات، وعلى تكرار وقوعها، وهل ارتكابها ناتج

(١) متفق عليه: البخاري (٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩)

(٢) متفق عليه: البخاري (٧١٠٠)، ومسلم (١٤٢) واللفظ له.

(٣) متفق عليه: البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

كثير مما يقع بين الزوجين من سوء العشرة أو التقصير في الحقوق لا يُنظر إليه على أنه منكر يأتّم فاعله، ويجب على من علم به إنكاره! وهذا يؤدي إلى استمرار المنكر واستفحاله

المنكر الثاني: التقصير في تربية الأولاد:

ومن صور المنكرات التي تندرج تحت هذا العنوان العريض:

١. التقصير في تعليم الأولاد العقيدة الصحيحة، وغرس محبة الله ورسوله ﷺ في قلوبهم، وكيفية أداء العبادات والتقصير في متابعتهم في قيامهم بها وبخاصة أداء الصلاة، والتقصير في إنكار ارتكابهم المعاصي الظاهرة وإن كانت صغيرة.
٢. تركهم عرضة للمؤثرات الخارجية التي تهدم العقائد وتُفسد الأخلاق -سواء من فضاءات الإعلام أو أصدقاء السوء- دون توجيه وتعليم وحوار.
٣. إهمال تربيتهم منذ الصغر على البرّ وإعانتهم عليه، وإهمال تربيتهم على محاسن الأخلاق كالعفة والحياء، وإهمال تربيتهم على ما يخص البنات كالحجاب وما يخص الأبناء كالرجولة.
٤. تركهم نهبة للألعاب والتفاهات التي تبث على وسائل التواصل الاجتماعي دون ترشيد أو توجيه.
٥. سوء المعاملة، ومن أمثلتها: التقصير في النفقة، والإهمال والتهميش، وتمييز بعضهم على بعض، والإهانة باستخدام الضرب المُذلّ أو الألفاظ الجارحة.

هذه المنكرات وغيرها تؤدي إلى نشوء جيل ضائع بلا هوية، تزيد بين أفرادها مظاهر الانحراف والإلحاد، والميوعة والضعف أو العدوانية والجرائم.

وترك العدل بين زوجاته، وإسراف الزوجة في النفقة، ومحاربتها زواجه بأخرى بالتعدّي والظلم أو الضغط عليه ليطلق أختها^(١).

٢. سوء الخلق والعشرة: بالإهمال، أو التجاهل، أو الهجر بلا سبب، أو السبّ والإهانة.

٣. الظلم البين كالضرب بغير وجه حق^(٢)، أو أخذ المال بغير وجه حق، أو استغلال الجهل ببعض الأحكام الشرعية للقيام بما يحرم القيام به!

٤. طلاق الرجل زوجته أو طلبه من الزوجة بغير سبب.

هذه المنكرات وغيرها تؤدي إلى إضفاء جوّ من عدم الاستقرار في الأسرة، وتفقد الزوجين أكبر نعم الله عليهما وهي: السكن والمودة والرحمة؛ فتعمّ التعاسة أرجاء البيت، وينشأ الأولاد في جوّ مشحون بالتوتر؛ ممّا يؤثر على نفسياتهم وبناء شخصيتهم. وإن لم يحصل الطلاق بين الزوجين حقيقة فسيحصل بينهما الطلاق العاطفي أو النفسي الذي يكون غير مُعلن؛ فيكون البيت قائماً في الظاهر ومنهاراً في الباطن، وهذا قد يفتح الباب للخيانة وطلب التعويض العاطفي خارج الأسرة بطرق محرّمة تؤدي إلى مزيد من الضياع والتشتت.

وإنكار هذا المنكر يأتي بالدرجة الأولى من داخل الأسرة، فيُنكر الزوج على زوجته، أو الزوجة على زوجها، أو الولد على والديه، كلّ ذلك بالطرق الشرعية الصحيحة، فإن لم يُزل المنكر فعلى من يطّلع عليه أو يعلم عنه من الأقارب أو الجيران المبادرة بإنكاره؛ لأنّ استقرار البيت ومنع الشقاق والطلاق مطلب شرعي أمر الله تعالى لأجله باتخاذ الحكمين، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٥]^(٣).

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنايتها) متفق عليه: البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٣). والمعنى: لا تطلب المرأة من زوجها أن يطلق زوجته، لتستأثر بغير زوجها وحدها وتحرم غيرها نصيبها منه.

(٢) ذكر الله في كتابه طرق علاج نشوز الزوجة، [والنشوز هو: معصية المرأة زوجها فيما فرض الله عليها من طاعته]، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]، وقد بين العلماء شروط هذا الضرب، وأكمل هذه الشروط ما ذكره الحنابلة، حيث ذكروا: ألا يكون نشوزها بسبب منعها من حقوقها، وألا يضرها إلا بعد وعظها وهجرها في المضجع، وأن يغلب على ظنه أن ضربه يفيد في رجوعها، وأن يكون قصده إرادتها تأديبها لا تعنيفها، وألا يكون الضرب مُبرّحاً، وأن يجتنب الوجه أو ما يخاف منه هلّكة أو تلف.

(٣) قال السعدي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كلّ منهما في شقّ؛ فابعدوا رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق؛ فينظران ما ينقم كلّ منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلّ منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، فقّعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه... وإن رأيا أنّ التفريق بينهما أصلح، فرقاً بينهما. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص (١٧٧) بتصرف يسير.

وأولاده تقصيرهم في حق أمهم، والآن تنكر على أولادها تقصيرهم في حق أبيهم، وينكر الأولاد على بعضهم، فإن لم يُجد ذلك نفعاً فعلى من يعلم حالهم من الأقارب نصحهم، وتأنيبهم، وحجزهم عن إيقاع العقوق على والديهم، ولكل حالة خصوصيتها.

المنكر الرابع: الظلم الواقع بين الأقارب:

ومن صور المنكرات التي تدرج تحت هذا العنوان العريض:

١. قطع الأرحام بهجرهم وترك الإحسان إليهم، أو بإيذائهم بأنواع من الأذى الذي يؤدي إلى التهاجر والتباغض والتدابير.
٢. التقصير في النفقة على الفقراء من الأقارب، ولا سيما النفقة على الأخوات الأرامل أو غير المتزوجات مع القدرة على ذلك وإلجائهنّ لعدم الاستقرار أو لكثرة التنقل بين البيوت أو سماع ما لا يسرّ من التلميحات، أو تركهنّ للفقر والحاجة وربما سؤال الناس.
٣. إهمال رعاية الأولاد الذين غاب أبائهم بسبب الموت أو الفقر أو السفر، وتركهم دون متابعة وتربية، ويعظم الخطب عندما يكون الإهمال بعد الاطلاع على الخلل الحاصل، أو بعد طلب الأم المساعدة في تربية أولادها وترك الاستجابة لطلبها.
٤. أكل أموال الورثة -وبخاصة النساء والأيتام- ظلماً وعدواناً، ففي كثير من المجتمعات لا تُعطى النساء حقهنّ من الميراث، أو يستأثر الذكور بالعقارات وتحرم منه الإناث.

٥. بعض صور سوء العشرة بين الزوجين، وعقوق الأولاد التي يظهر فيها جانب الظلم البين كما تقدّم.

ومسؤولية إنكار هذه المنكرات تقع على عاتق الجميع الأقرب فالأقرب، وقد يستدعي الحال تفاعلاً واستنفاراً وربما استعانة بمن له مكانة أو سلطة؛ لأنّ تفشي مثل هذه المنكرات يؤدي إلى قطيعة الرحم، وفشو الظلم، وتولد الأحقاد والضغائن بين المظلوم وظالمه، كما أنّ أكل المال بغير حق قد يؤدي إلى فقر المظلوم وإذلاله بسؤال الناس، ويؤدي إهمال رعاية الأقارب وأولادهم إلى نشوء جيل يعاني الضياع والتهميش والفقر، وضرر ذلك كله لا يقتصر على الأسرة فحسب، بل يمتدّ إلى المجتمع، ويؤثر فيه سلباً.

وكون هذه المنكرات صادرة عن أحد الوالدين يُوجب على الآخر الإنكار عليه، فإن اشتركا في هذا المنكر وجب على غيرهما ممن يعلم حالهما من الأقارب الإنكار عليهما، وينبغي أن ينصبّ الجهد على تنبيه الوالدين ووعظهما وإعانتتهما؛ لأنّ التدخّل في تربية الأولاد بشكل مباشر محفوف بالمخاطر -إلا في حالات خاصّة جدّاً- وله عواقب تربوية كثيرة ليس هذا مقام ذكرها.

المنكر الثالث: العقوق:

العقوق ناتج في الغالب عن سوء تربية الوالدين لأولادهما، وقد يكون ناتجاً عن عوامل خارجية كالإعلام وأصدقاء السوء، وصوره كثيرة ومتنوعة لا تخفى، وعنوانها العريض: ارتكاب الأعمال التي تتنافى مع البرّ والإحسان والأخلاق الكريمة معهما، وسأكتفي في هذا المقام بذكر أمثلة عليها، فمن ذلك:

١. قلّة أو انعدام تقدير الوالدين وإنزالهما منزلتهما التي يستحقانها، ولا سيما عند تقدّم الأولاد في العلم أو الوظيفة أو المكانة الاجتماعية، ومن ذلك: التعامل معهما بنديّة، أو ترك الاهتمام برأيهما أو استشارتهما في المهمّ من الأمور، أو عدم إخبارهما بالمفرح منها، أو مقاطعتهما بالكلام والإكثار من مجادلتها.
٢. الإثقال عليهما بالطلبات والنفقات. ونتيجة لسوء التربية أو التأثر بالمجتمع تصبح هذه الطلبات والنفقات الزائدة والمبالغ فيها طبيعية وحقاً أصيلاً في نظر الأولاد، يغضبون إذا لم يحصلوا عليه!

٣. ترك الإنفاق عليهما عند كبرهما، أو المنّ عليهما بالنفقة، أو هجرهما وإياداعهما في دار العجزة.

٤. التقصير في زيارتهما وتفقد أحوالهما، والتأخّر في قضاء حوائجها.

هذه المنكرات وغيرها تؤدي إلى اضطراب الأسرة، وانعدام الطمأنينة والراحة فيها، وقد تؤدي إلى انتقال العقوق من ولد لآخر من الأسرة، ومن أسرة لأخرى، فضلاً عمّا سيعانيه الولد العاق في عاقبة أمره من كدر في الحياة وضيق في الرزق، وربما مجازاته بعقوق أولاده له.

وكون هذه المنكرات صادرة عن الأولاد فهذا يستدعي الإنكار عليهما من والديهما، ومما يعين في ذلك تبادل الأدوار بين الأب والأمّ، فالأب ينكر على

طريقة إنكار المنكرات في نطاق الأسرة:

أدعى لاستجابته للنصح، فإن أصرَّ وأبى فينتقل معه إلى مراتب أخرى من مراتب الإنكار.

« **المرتبة الثالثة:** الزجر والتأنيب والإغلاظ بالقول والشدة في الإنكار، وذلك فيمن لم ينفع فيه وعظ.

« **المرتبة الرابعة:** التهديد والتخويف بالعقوبات سواء كانت مقدرة كالحدود أو غير مقدرة كالتعزيرات، أو تهديده بالهجر ومقاطعته حتى يتوب. وينبغي أن يكون الهجر جميلاً، و«الهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى»^(١).

وهاتان المرتبتان في آخر المحاولات لتغيير المنكر باللسان، ولا تكونان إلا ممن يصح صدورهما منه، فعلى سبيل المثال: لا يزجر الولد والديه، ولا تهجر الزوجة زوجها إلا في حالات معينة كأن يكون منكراً فاحشاً تخشى على نفسها وأولادها منه، أو يكون مكفراً فيجب عليها حينئذ أن تفارقه.

« **المرتبة الخامسة:** التغيير باليد: بإزالة المنكر أو منع حصوله.

ولا يعني مجيء هذه المرتبة في هذا الموضع أنه لا يصار إليها إلا بعد المراتب الأربعة الأولى، بل قد يلجأ المحتسب إلى تغيير المنكر باليد إذا كان الموقف يستدعي ذلك كإنقاذ حياة شخص من بين يدي من سيقتله ضرباً؛ إذ لا وقت للنصح والإرشاد والزجر والتهديد في هذه الحال.

وفي المراتب الخمسة السابقة بعض التفصيلات الأخرى التي يحسن ذكرها، منها على سبيل المثال:

* أن للوالدين حق إنكار منكر أولادهما وتأديبهم ولو صاروا كباراً؛ لعموم حديث (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ)، ولأنَّ مسؤوليتهم لا تنقطع ببلوغ الأولاد ولا باستقلالهم وتكوين أسرهم الخاصة بهم.

* ميدان احتساب المرأة هو احتسابها على النساء والصبيان، والمحارم من الرجال، ولا سيما أنها تختص بمعرفة منكرات لا يطلع عليها غيرها، لكن عليها ألا يدفعها حنانها ورحمتها أن تتهاون في إنكار المنكر سواء من زوجها أو أولادها أو سائر قرابتها، أو إخفاء منكرات أولادها عن زوجها؛ إلا في حالات ضيقة تقتضيها المصلحة.

إنكار المنكرات في نطاق الأسرة يكون بالطرق المعروفة في إنكار المنكر والتي ذكرها العلماء، لكن مع وجود خصوصية لبعض الحالات، وأنا هنا أستعرضها بشكل سريع ومختصر وأنبه على ما فيها من خصوصية، ثم أستعرض بعض الحالات الخاصة وأذكر بعض أقوال العلماء فيها:

« **المرتبة الأولى:** التعريف والتنبية والتذكير، وتكون غالباً في حق الجاهل.

« **المرتبة الثانية:** الوعظ والتخويف من الله، وتكون في حق مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قد اقترف المنكر وهو عالم به.

وهاتان المرتبتان في مقام التربية والتعليم، وينبغي أن تكونا ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، مع التحلي بالحلم والصبر، كما كان هديه ﷺ مع الناس وأهل بيته على وجه الخصوص.

وإذا كان مرتكب المنكر كبيراً في السن والمنزلة فينبغي أن يكون التعليم بغاية اللين، والتنبية على المنكر بأحسن الأساليب والطفها؛ لأنَّ النصيحة إذا أتت من الأدنى إلى الأعلى يكون تقبلها في الغالب صعباً، فعلى الزوجة -مثلاً- إذا أرادت نصح زوجها أن تراعي حقه وقدره؛ فتتلف معه في الخطاب ولا ترفع صوتها عليه، ولا يكون وقوعه في المنكر سبباً في تقصيرها في حقوقه.

أما إن كان مرتكب المنكر أحد الوالدين فيجب على الولد أن يستخدم معهما أقصى ما يمكن من الحكمة واللين والتلف والإقناع والتي هي أحسن، بعيداً عن الزجر والتقريع، ولا ينبغي أبداً أن يمنعه إصرارهما على المنكر من برهما وتجنب إيذائهما، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيْكَ ثُمَّ إِلَيَّْ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]، ومن أعظم أمثلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حق الوالد التي يُقتدى بها: مثال إبراهيم عليه السلام مع أبيه كما جاء في سورة مريم [٤١-٤٨]، والمتأمل في طريقة الخطاب يدرك جملة الأحكام والآداب المشتملة عليها.

وينبغي مع التعريف والوعظ: الستر على فاعل المنكر وتجنب فضحه، مع الدعاء له بالهداية؛ فهذا

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٦٨).

وهذه المرتبة إنما تكون لمن له ولاية كالآب على أولاده، والزوج على زوجته، ويكون القصد منها التأديب والزجر عن معاودة المنكر، لا الانتقام والتشفي، ولذا يجب أن تكون العقوبة في حدود المأذون به شرعاً.

« **المرتبة السابعة:** الاستعانة بالأعوان من الأقارب على اختلاف درجات قرابتهم: وذلك فيما لا ينفع فيه الجهد الفردي، فإن الكثرة قد تنفع في علاج بعض المشكلات ومنع بعض المنكرات، لا سيما إن كان للمستعان بهم مقام ووجاهة أو سلطة.

« **المرتبة الثامنة:** رفع الأمر إلى الحاكم أو الجهات المختصة كالشرطة أو القضاء، وذلك حين تفشل الجهود السابقة في منع حصول المنكر.

وهاتان المرتبتان لا بدّ منهما إذا كان المنكر عظيماً واستفحل ولم ينفع في منعه شيء، وإهمالهما يؤدي إلى بقاء المنكر وتفشييه، واستمرار الظلم والرضا به بنوع من أنواع الرضا، وهو مؤثر خطير يؤذّن بالعقوبة للمجتمع كله (إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) (٢).

إنكار المنكر في إطار الأسرة وبين الأقارب يمنع كثيراً من المظالم التي إذا تركت فإنها ستستشري، وقد تنتشر في المجتمع، وبالتالي ستكون عاقبتها وخيمة على الجميع

وختاماً:

فإن إنكار المنكر في إطار الأسرة وبين الأقارب ينبغي أن يكون فيه قدر زائد من: العناية بالأسلوب، وحسن المعاملة والخلق الرفيع، وإظهار المحبة والشفقة والرحمة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والحرص على عدم الإكثار من الموعظة لدرجة الملل وحصول القطيعة، بل يكون التحوّل بها عند رجاء قبولها ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، مع التأكيد على ألا يكون إنكار المنكر وسيلة للتدخل في خصوصيات الأقارب وانتهاك حرمت بيوتهم. وإن ذلك ليسير على من يسره الله عليه، وأخلص النيّة لله، والتزم في خاصّة نفسه بما يأمر به وانتهى عمّا ينهى عنه، واستعان على ذلك بعد الله تعالى باستشارة ذوي العقل والحكمة.

ولا تحتسب على الرجال الأجانب عنها ولو كانوا من أقاربها إلا بشروط وضوابط (تزيد على الشروط العامة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) خلاصتها فيما يلي:

• الحاجة، بأن لا تجد رجالاً ينكرون المنكر، ويكون المنكر مما لا يحتمل السكوت عليه.

• الالتزام بالحجاب، وعدم الاختلاط أو الخلوة، وعدم الخضوع بالقول.

• أمن الفتنة عليها وبها، بأن تنكر المنكر بحضرة جماعة من النساء، أو تكون كبيرة في السن.

• أمن الضرر على نفسها، قال رسول الله ﷺ: (لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه، قالوا: وكيف يذلّ نفسه؟ قال: يتعرّض من البلاء لِمَا لا يطيق) (١).

* احتساب الرجال على النساء الأجنبية عنه من قريباته وغيرهن أيضاً له ضوابط يمكن إجمالها فيما يلي:

• الحاجة، بالألا يجد امرأة تُنكر هذا المنكر، ويكون المنكر مما لا يحتمل السكوت عليه.

• الالتزام بضوابط الحديث بين الرجل والمرأة الأجنبية عنه حتى ولو كانت من أقاربه.

• أمن الفتنة، بغضّ البصر، وعدم تجاوز قدر الحاجة، وإذا احتاج للنظر فيكون بغير شهوة.

• أمن الضرر.

• عدم تجاوز الإنكار باللسان إلى اليد إلا عند الحاجة؛ فإن حصلت مشاجرة بين امرأتين أنكروا عليهما باللسان، فإن لم يستجيبا وخشي الضرر عليهما أو على أحدهما حَجَرَ بينهما ولو اقتضى ذلك مسهما؛ درءاً للمفسدة الأكبر.

« **المرتبة السادسة:** إيقاع العقوبة: وذلك فيمن جاهر بالمنكر وكابر وامتنع.

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤) وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠).

التوبة من مملأة الظالمين: سوريا بعد التحرير نموذجًا

أ. عبد المجيد بدوي^(*)

يقول الله تعالى في قوم: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] وأنهم ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوْلَتْكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]، وقد عهدنا ربنا رحيمًا حكيماً حليماً لا يرد التائبين، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، فلماذا جاء هذا الحكم الذي تظهر فيه صفات الجلال والقهر والجبروت؟ إن هذه الآية تحكم بوضوح أنه تَمَّة توبة مقبولة وتوبة غير مقبولة.

لكنه بيان لجبلة الإنسان وطبعه من جهة، وبيان لكرم الله ومغفرة ذنوب العباد من جهة أخرى، فكما أن مقارفة الظلم من لوازم بشریتنا فإن العفو والمغفرة والرحمة والكرم والحلم من صفات الله تعالى.

من حکم تشريع التوبة:

من سبل تربية الرب لعباده أن فتح لهم باب التوبة؛ ليرتدعوا عن سالف ذنوبهم ويقلعوا عنها، إذ لو أغلق هذا الباب لنتج عنه فساد عظيم في أخلاق الناس، فالمرء سيذنب لا محالة، وإذا كان كل مذنب هالکًا، ولا سبيل له أن يرجع ويصح،

القابلية للخطيئة:

الظلم والخطيئة واردان من البشر؛ فالأصل في الإنسان القابلية للوقوع في الخطأ، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)^(١)، فهذه الكلية تحتم الخطأ على الأدمي.

ذهبت بعض النصوص إلى أبعد من ذلك؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم)^(٢)، وهذا الحديث ليس تحضيضًا على مقارفة الذنوب،

(*) عضو لجنة إعداد الخطبة في رابطة خطباء الشام.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

ذهب فريق من أهل العلم إلى عدم مطالبة البغاة بما أتلّفوه لأهل العدل حال بغيهم، وهذا لا يعني تكيف القتال مع النظام البائد على أنه قتال بغاة^(١)، بل فيه بيان أن الشريعة اعتبرت المصلحة العامة في ظرفٍ مثل ظرفنا، فلم تطالب أهل البغي بدم سفكوه أو مال استحلوه.

قال ابن قدامة: «وليس على أهل البغي أيضًا ضمان ما أتلّفوه حال الحرب، من نفس ولا مال... ولأن تضمينهم يفضي إلى تنفيرهم عن الرجوع إلى الطاعة، فلا يشرع، كتضمين أهل الحرب»^(٢).

وفي كلام ابن قدامة -رحمه الله- بيان لإحدى الحكم التي لأجلها شرعت التوبة وقد سبقت الإشارة إليها، فالشريعة متشوّفة إلى عودة العاصي إلى الطاعة لذا تفتتح له الأبواب وتخفف عنه.

التوبة المقبولة:

باب التوبة مفتوح، لكن هل هو مفتوح دون قيد؟ ألن يأتي وقت يتوب فيه العاصي فلا تقبل توبته لأنها خارجة عن زمان القبول؟ فعل ذلك فرعون فماذا قيل له؟ ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، لذا لا بد للتوبة حتى تكون مقبولة أن تقع قبل الغرغرة.

وفي الحديث: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)^(٣).

وقد قيد القرآن توبة المحاربين بأن تكون قبل القدرة عليهم، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقَدَّرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

هذه الآية في قول ابن عباس وكثير من العلماء، نزلت في قطاع الطريق في قصة العرنين، وكانوا ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الرعاة، فاستاقوا إبل الصدقة، فبعث النبي ﷺ من جاء بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وألقاهم في الحرة حتى ماتوا. قال أنس: فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية^(٤).

فستسول له نفسه أنك صائر لا محالة إلى العذاب، فلا تصيرن إليه بذنب قليل، بل اجترح ما شئت وأكثر، وعُبَّ من كأس الحرام حتى الثمالة.

إن وضوح هذا المعنى يساعدنا في تربية أبنائنا، وفي صوغ القوانين التي تهدف إلى تأديب العصاة في المجتمع، فنفتح لهم باب التراجع عن الخطأ، ولا نجعل الخطأ الأول نهاية الطريق، بل نطمعهم دائمًا بعفوٍ محتمل؛ فإن هم أقلعوا عما هم فيه من ضلال وعادوا إلى سبيل الرشد قبلنا منهم وعفونا عنهم، ما دام أن غرضنا من العقاب هو التأديب والتعليم والصلاح، لكن ماذا لو كان هناك غرض آخر؟

حق الله وحق العبد:

فتح الله باب التوبة لعباده لكن لم يجعل التوبة ماحية لحقوق العباد، فللتوبة أركان ثلاثة: الإقلاع عن الذنب؛ فلا تتصور توبة عن ذنب ممن أقام عليه، والندم على اقترافه، والعزم على عدم العود إلى المعصية.

أما إذا انتهك الذنب شيئًا من حقوق العباد فلا بد من أمر رابع وهو: إعادة الحق لأصحابه، فلا يصح أن يعمد سارق إلى أموال الناس فينتهبها، حتى إذا حازها وتمتع بها ختم عمره بالتوبة إلى الله فحج ولهج بالتوبة بين الركن والمقام، وتصدق وأنفق! لذا لا يقبل القاضي من القاتل أن يطلب منه رفع القصاص أو الدية لأنه تاب وأتاب وعزم على عدم العودة إلى القتل!

فالعقوبة لها غرضان: غرض تأديبي كي يرتدع الجاني وغيره عن الإتيان بهذه الجناية مرة أخرى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وغرض آخر؛ وهو صيانة حقوق العباد أن تذهب هدرًا، فحق الله مبني على المسامحة، بخلاف حقوق العباد التي بُنيت على المشاحة.

عدم مطالبة البغاة بما أتلّفوه:

قد يستشكل بعض الناس زهاب شيء من الحقوق في العفو المتوقع بعد تحرير سوريا من حكم الأسد، لكن الشريعة احتملت شيئًا شبيهاً بهذا الحكم عند النظر في المصالح والمفاسد، فقد

(١) فتوى لهيئة الشام الإسلامية عن استهداف العاملين في الأجهزة الأمنية 389/fatawa/islamicsham.org.

(٢) المغني، لابن قدامة (٥٣٢/٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) ينظر: أبو داود (٤٣٧٠) والنسائي (٤٠٢٥).

وظل هذا الأمر مثار جدل بين النخب والعامّة، كما رصد الثوار تعيينات في مناصب مهمة من رجال كانوا مع النظام البائد فثارت ثائرتهم، وضغطوا في وسائل التواصل على صنّاع القرار فاستجيب لبعض ما اعترضوا، وتبين أن بعض التعيينات كانت محض شائعات يجدر التحقق منها قبل نشر خبرها.

ولم يقتصر توجه الحكم الحالي على التسامح مع من انعطف فغير طريقه عن تأييد الظالم إلى تأييد الثورة، بل تعداه إلى التسامح مع من حمل السلاح سابقاً إذا ألقاه قبيل دخول دمشق، وكان الشعار الأبرز «اللهم نصرًا لا تآر فيه»، واستحضر الناس يومها المقولة الشهيرة «أذهبوا فأنتم الطلقاء»، وبين الحكام بعد ذلك أن السماح لا يطال كبار المجرمين ورؤوسهم، بل يشمل عامتهم ممن كان في التجنيد الإلزامي، ويستدلون على صوابية هذا التسامح بأن معظم البلاد فتحت دون حرب، إذ أتاح للمقاتل من العدو أن يتراجع عن خطئه في نصره الظالمين، وقد سبق أن هذه حكمة من الحكم التي لأجلها شرعت التوبة.

إن توسيع باب العفو وتضييقه يرجع إلى نظر الحاكم، فيتخير تحقق مصلحة حقيقية للمسلمين لا تخير تشهّي، فإن وجد المصلحة في التوسعة وسع وحقق الدماء خصوصاً إن لمس ضعفاً وعجزاً عن ملاحقة من مالا الظالم، وإن وجد قدرة وظرفاً مؤاتياً داخلياً وخارجياً فله أن يضيق فيشرد ويؤدب ﴿فَأَمَّا تَثَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].

لكن العفو عن مالا الظالم لا يستلزم منه أن يوليه الحاكم ولاية أو مسؤولية عامة، وللناس أن تنصح وتستفسر عن وجه العفو، فإن لم يظهر له وجه جاز الإنكار بالطرق الشرعية، وعليهم أن يخشوا على ثورتهم من عودة الفلول حتى يقوم الحاكم ببيان وجه توليته أولئك الناس، فمن واجب الثوار اليوم المحافظة على ثورة انتصرت بدماء الشهداء، فما أغلاه من ثمن دفعناه للنصر.

ولأن محاربة الله ورسوله إنما تكون من الكفار لا من المسلمين، ولنا قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، والكفار تقبل توبتهم بعد القدرة، كما تقبل قبلها^(١).

ويذكر ابن قدامة -رحمه الله- تعليلاً لهذا الحكم يصلح أن نهتدي به في حالتنا التي مررنا بها بعد التحرير، يقول: «لأنه إذا تاب قبل القدرة، فالظاهر أنها توبة إخلاص، وبعدها: الظاهر أنها تقية من إقامة الحد عليه، ولأن في قبول توبته وإسقاط الحد عنه قبل القدرة ترغيباً في توبته والرجوع عن محاربتة وإفساده؛ فناسب ذلك الإسقاط عنه، وأما بعدها فلا حاجة إلى ترغيبه؛ لأنه قد عجز عن الفساد والمحاربة»^(٢).

لكن توبتهم مقبولة في حق الله دون حقوق الأدميين، قال ابن قدامة: «فإن تابوا من قبل أن يقدر عليهم، سقطت عنهم حدود الله تعالى، وأخذوا بحقوق الأدميين؛ من الأنفس، والجراح، والأموال، إلا أن يعفى لهم عنها، لا نعلم في هذا خلافاً بين أهل العلم، وبه قال مالك والشافعي وأصحاب الرأي وأبو ثور»^(٣).

العقوبة لها غرضان: غرض تأديبي كي يرتد الجاني وغيره عن الإتيان بهذه الجناية مرة أخرى، وغرض آخر؛ وهو صيانة حقوق العباد أن تذهب هدرًا، فحق الله مبني على المسامحة، بخلاف حقوق العباد التي بُنيت على المشاحة

العفو في سوريا بعد التحرير:

ما إن نزلت خيل الثورة في ساحة الأمويين حتى برزت في الشبيحة وأعوان النظام ظاهرة «التكويح»^(٤)، يتخذون من خلالها مواقف مساندة للثورة بعد أن أعزها الله وأغناها عن مناصرتهم، وتباينت مواقف الثوار من هذه الظاهرة: فمرحّب بمن عاد وتاب، وآخر ينادي بإنزال العقوبة في كل شبيح، مستدلاً بآيات قبول التوبة قبل القدرة،

(١) ينظر: المغني، لابن قدامة (١٤٤/٩).

(٢) المرجع السابق (١٥١/٩).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) في اللغة: الكوع طرف الزنبد الذي يلي أصل الإبهام، وفي هذا الجذر معنى الاعوجاج: فالكوع في الناس: أن تَعَوَّجَ الكُفُّ من قِبَلِ الكُوعِ، وفيه معنى الجبن: قال الكسائي: كَعْتُ عن الشيء... إذا هَيْبَتْهُ وَجَبُنْتُ عَنْهُ. ينظر: لسان العرب (٨/ ٣١٦، ٣١٧)، ويسمى العامة منعطف الطريق الكوع، وهو في اصطلاحنا: اعوجاج الشبيح عن طريق نصره الطاغية الزائل إلى الترحيب بالثورة جبناً وهيبه. ومن أراد أن يزيّن التكويح ألحقه بالحنف، فالحنيف المائل عن الشرك إلى التوحيد.

مملأة الظالم ومراتبها:

قَبَّحَت الشريعة الظلم بجميع أشكاله، وفي هذا نصوص مشهورة تغني شهرتها عن استعراضها، ونهت عن الركون إلى الظالمين ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وبما أنَّ الظلم مراتب ودرجات، وكذلك الركون إلى الظلمة، فالعدل في حقهم يقتضي الجمع بين المتشابهات والتفريق بين المختلفات، فَمَنْ كان من رؤوس الإجرام فالفداء رأسه، أما إن اقتصر على الحد الأدنى من مناصرة الظالم ليحفظ بها حياته وليدفع عنه ظلمه فهذا شأنه أهون، وقد يكون لقبول عودته وجه؛ إذ قد تكون حالة الاضطرار أَلجأته ولم يستطع الفرار أو النأي بنفسه.

وبين هاتين الرتبتين تتدرج حالات مناصرة الظالم، ويتدرج الحكم على من تاب منها:

« **فمقبول منه مسكوت عنه**، مهمل لا يُصدَّر، ولا يُعطى الحق في الكلام على الشاشات؛ إذ استحقاق الكلام والتصدُّر لا يكون لكل أحد، ومن العجب أن بعض رجالات النظام البائد تصدَّروا الساعات الطويلة على شاشات نحسبها ثورية، ليبرروا وقوفهم مع النظام وليقولوا إنهم كانوا مع الوطن لا مع الظالم، فلا ينقضي العجب من ذلك.

« **ومقبول منه مشهَّر به فلا يُنتفع منه بعدُ** ولا يولى، وهذا يجدر أن ينطبق على من كان بوقًا للنظام يدافع عنه ويبرر أفعاله، كمفتن وإعلامي مشهور.

« **ومقبول منه معفو عن دمه دون ماله**، فيدرك العفو دمه فيحققه، لكنه يقصر عن ماله فلا يعصمه، كصغار الضباط ومن كان منهم في خدمة إلزامية.

« **أما كبار المجرمين فلا عصمة ولا كرامة**، وهذا كله من نظر المصلحة، وتقدير المصالح منوطٌ بالحكام والقضاة، فينبغي عليهم بعد أن يتدبَّروا الأمر أن يبيِّنوا وجه قراراتهم للناس، حتى لا يبقى في النفوس شيء، ولا يشعر الثوار بالخوف على ثورتهم فيظلون في حالة شكٍّ وتوجُّس من قرارات الحكم الحالي.

ومن جانب آخر: أجرت الحكومة تسوية لضباط النظام البائد، لكن منهم من يخرق هذا الأمان بين الفينة والأخرى، بل كان الضباط الذين أجروا التسويات شرارة لمحاولة انقلابية قاموا بها في الساحل في الأسبوع الأول من رمضان كادوا ينفصلون به عن البلاد، ما جعل الناس يشككون في جدوى هذه التسويات، وعدوها استراحة مجانية مُنحت لهؤلاء الظلمة استفادوا منها في تسوية صفوفهم وإعادة ترتيب أوراقهم، ومهما يكن من أمر فقد تمت التسويات، وتم التمرد اللاحق وتمت السيطرة عليه من خلال هبة جماهيرية عارمة أظهرتها قوات الثورة، إذ دفعت بالأرتال الشعبية المسلحة تجاه الساحل، فاستعادت السيطرة، وأدبت الجناة، لكن هل بعد هذا النقض عفو وتسوية جديدة؟

قال الشافعي رحمه الله: «وكان من الممنون عليهم بلا فدية أبا عزة الجمحي، تركه رسول الله ﷺ لبناته، وأخذ عليه عهداً أن لا يقاتله، فأخفَّه وقاتله يوم أحد، فدعا رسول الله ﷺ أن لا يفلت، فما أسر من المشركين رجل غيره، فقال: يا محمد امنن علي ودعني لبناتي وأعطيك عهداً أن لا أعود لقتالك، فقال النبي ﷺ: (لا تمسحُ على عارضيك بمكة تقول: قد خدعت محمداً مرتين) فأمر به فضرب عنقه^(١).

وفي المقابل عفا النبي ﷺ عن قاتل حمزة لكنه طلب منه أن يغيب عنه وجهه، قال -أي وحشي-: ﴿فلما رأني قال: (أنت وحشي؟) قلت: نعم، قال: (أنت قتلت حمزة؟) قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: (فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني)^(٢).

كان شعار التحرير الأبرز: «اللهم نصرًا لا تأر فيه»، واستحضر الناس يومها المقولة الشهيرة «أذهبوا فأنتم الطلقاء»، وبيَّنت القيادة بعد ذلك أن السماح لا يطال كبار المجرمين ورؤوسهم، بل يشمل عامتهم ممن كان في التجنيد الإلزامي، ولهذا ثمرة عظيمة؛ فقد فُتحت معظم البلاد دون حرب حين ألقى المقاتلون السلاح وتركوا مواقعهم وتراجعوا عن خطئهم في نصرة الظالمين

(١) السنن الكبرى، للبيهقي (١٨٠٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٢).

* ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

* ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

* ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

* ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

* ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤-٥].

* ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وفي سورة التوبة ما يمكن اعتباره حديثاً عن توبة مانعي الزكاة قبل أن يمنعوا الزكاة، وكأنه نبوءة بها، فالآية الأولى تأمر بجباية الزكاة ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وتمسك المانعون بحرفيتها فقالوا: «ندفع ما دام الأخذ النبي، لأن صلاته سكن، فندفع ويصلي، فما بال صلاة ابن أبي قحافة»^(١)، وإذا أكملنا الآية التي تليها نجد الكلام عن التوبة وعن الأخذ الحقيقي للزكاة ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكأن الآية تقول لمانعي الزكاة: أخطاتم إذ ظننتم أن الذي يأخذ الصدقات هو النبي ﷺ، بل الأخذ لله، فتوبوا فهو الذي يقبل التوبة.

فهذه توبة مانعي الزكاة لم تقبل منهم إلا أن يؤدوا ما نكلوا عنه، فليؤد التائبون اليوم ما نكلوا عنه البارحة.

وفي سورة التوبة حديث عن توبة الله على المحاهدين ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وتوبته على أناس مسلمين

وقد ظهر عقيب الثورات إجراء يجدر أن يتبع بعد نجاح ثورتنا وهو العزل السياسي؛ حماية للثورة من أعدائها السابقين، ويلحق بالعزل السياسي: العدالة الانتقالية.

بما أن الظلم مراتب ودركات، وكذلك الركون إلى الظلمة، فالعدل في حقهم يقتضي الجمع بين المتشابهات والتفريق بين المختلفات، فمن كان من رؤوس الإجرام فالفداء رأسه، أما إن اقتصر على الحد الأدنى من مناصرة الظالم ليحفظ بها حياته وليدفع عنه ظلمه فهذا شأنه أهون، وقد يكون لقبول عودته وجه؛ إذ قد تكون حالة الاضطرار ألجأته ولم يستطع الفرار أو النأي بنفسه

توبة مشروطة:

وإذا كنا في حالة شبيهة بحالة فتح مكة فلنرجع إلى السورة التي فتحت باب التوبة للمشركين بعد الفتح؛ فلم ترض السورة من المشركين توبة غير مشروطة، بل أضافت لها ما كانوا يمتنعون عنه قبل، وهو أداء الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وفي ثورتنا عندما نقبل توبة من تاب، نشترط عليه نصره الثورة في مواقفها القادمة وتبنيها، فهل انتصر أولئك التائبون للثورة في وقعتها مع فلول النظام في الأسبوع الأول من رمضان؟ هل حث الشيخ الذي كان في مناطق النظام طلابه وأتباعه على الالتحاق بقوات الأمن ليستعيدوا سيطرتهم على مناطق سيطر عليها الفلول وأوصاهم ألا يقتلوا وليداً ولا امرأة، أم عاد إلى مقالاته الأولى أنها فتنة وقتال بيني، وعضوا على جذع شجرة؟

كثيراً ما طلبت الآيات التوبة مقرونة بما يعززها، ومن ذلك:

* ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

(١) قالوا: أظننا رسول الله ما كان وسطنا ... فيا عجباً ما بال ملك أبي بكر. الأم، للشافعي (٢٢٨/٤).



هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرًا
وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطبًا
أيحلبون دماً منا ونحلبهم
رسلاً لقد شرفونا في الورى حلبًا

خلاصة القول:

إن الخطيئة ملازمة لبشريتنا، وقد زين الشرع لنا التوبة وفتح بابها. وعد علماء السلوك المعصية التي تجلب انكسار العبد وذلة خيراً من الطاعة التي تورثه العجب والاستكبار؛ إذ الذل والانكسار يوافق صفة العبودية فينا.

وربنا شرع التوبة ليعود المخطئ عن خطئه فلا يستمر فيه، لكنه لم يجعلها مسقطة لحقوق العباد إلا في استثناءات نص عليها الفقهاء تتم فيها مراعاة المصلحة العامة كعودة البغاة عن بغيتهم وتركهم لمحاربة أهل العدل.

وإذا تاب من مالا النظام المجرم البائد عن قبيح فعلته فيُنظر في ممالأته، فكل له حكمه، وما ينبغي أن يكون لكبار مجرميهم نجاة ولو تعلقوا بأستار الكعبة، أما صغارهم فليُغيبوا عنا وجوههم فلا يملؤوا علينا الشاشات، وليثبت الصادقون في توبتهم صدقها بأن يتوبوا ويصلحوا ويبينوا ويعتذروا عن خطيئهم ويناصروا الثورة في وقعاتها القادمة، أما من نال الأمان المؤقت فنقضه فله السيف، لا يخرج على وسائل التواصل يمسح عارضيه يقول: خدعت الثورة مرتين، أولئك ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ﴾.

تخلفوا عن الجهاد ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فمن تخلف عن الجهاد الواجب من المؤمنين حُق له أن يعاقب بعد أن يعرف الخطأ الذي ارتكب؛ حتى يلتحق بصفوف الجماعة المسلمة في جهادها القادم.

التوبة المردودة:

في عود على بدء رد الله توبة بعض التائبين، وهم الذين تكررت منهم الردة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا لَا بَعِيدًا﴾ [١٣٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [١٣٧] ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٧-١٦٩]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

وإذا أردنا تطبيق هذا المعنى على ثورتنا فلنحمله على أولئك الذين منحوا التسويات فلم تتسع صدورهم أن يركنوا إلى الأمان الذي منحوه، فجردوا السيف فلنجعلهم له جزراً.

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها
إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا



إستراتيجية إيران للهيمنة وتصدير التشيع في أفريقيا

د. فاطمة علي عبّود^(*)

تستخدم إيران في خدمة مشروعها في القارة الأفريقية القوّة الناعمة؛ فتقدّم للدول الأفريقية مختلف الخدمات التعليمية والاجتماعية والصحية؛ بهدف كسب ولاء السكان المحليين، ونشر الفكر الشيعي، مما أدى إلى زعزعة الاستقرار وزيادة التوترات الطائفية، مما يهدّد السلم الاجتماعي في البلدان المستهدفة، والمقال الذي بين أيدينا يلقي الضوء على هذه الإستراتيجية.

ذات الأهمية الكبرى، وهي نشر المذهب الشيعي وتعاليمه في القارة الأفريقية، مستغلة لتحقيق هذه الغاية ضعف البنى التحتية؛ التعليمية والصحية والمعيشية التي تعاني منها معظم الدول الأفريقية، وبذلك تظهر إيران بمظهر الحليف للدول المستضعفة والمهمشة والباحثة عن العدالة الاجتماعية والإنسانية، وذلك من خلال ادّعائها خلق نظام عالمي جديد يواجه قوى الغرب المعادية، وبتسارع عمّا أحدثته تداعيات الثورة الإيرانية في أفريقيا؟ وهل كانت هذه التداعيات مدعاة لإثارة المخاوف من زعزعة الاستقرار في المنطقة؟ وهل كانت سبباً في زيادة التوترات المذهبية لتحقيق أجندات خارجية؟

مدخل:

استخدمت إيران أسلوب القوّة الناعمة^(*) في القارة الأفريقية لخدمة طموحاتها المتعدّدة، إذ تعدّ أفريقيا ساحة خصبة لتحقيق أهداف إيران غير المتناهية؛ بسبب موقعها الجغرافي وثرواتها الطبيعية، وخاصة بعد اكتشاف النفط في المنطقة والذي أدّى إلى ازدياد أهميتها السياسية في المحافل الدولية. لقد سعت إيران من خلال الدعم الاجتماعي والثقافي والديني إلى تحقيق مجموعة من الطموحات الجيوسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية في القارة، وتعدّ هذه الطموحات جزءاً من استراتيجية أوسع، تهدف إلى تعزيز مكانة إيران بوصفها قوّة إقليمية ودولية، ناهيك عن غايتها

(*) أستاذة اللغة العربية في جامعة سلجوق في تركيا.

(1) هو مفهوم صاغه جوزيف ناي من جامعة هارفارد لوصف القدرة على الجذب والضم دون الإكراه أو استخدام القوّة كوسيلة للإقناع.

النفوذ الإيراني في أفريقيا... التمرکز والتوسع:

تنهض وترفض الديكتاتورية»^(١)، لقد عملت إيران على دعم حلفاء سياسيين وعسكريين في بعض الدول الأفريقية من خلال تقديم الدعم المادي واللوجستي، «ففي العاصمة السنغالية (داكار) يوجد مصنع (خضرو) للسيارات الإيرانية، ومشروع بناء مصفاة للنفط، ومصنع للكيمياويات، وآخر للجرارات الزراعية، وتحفظ بعلاقات وثيقة مع كل من موريتانيا وغامبيا ونيجيريا، كما تتمتع إيران بعلاقات قوية مع السودان، فطهران أكبر مصدري السلاح للخرطوم، كما قامت في عام ٢٠٠٨م بتوقيع اتفاقية للتعاون العسكري بين البلدين، وأثناء زيارة الرئيس الإيراني لكينيا وافق على أن تصدر بلاده نحو ٤ ملايين طن من النفط الخام سنوياً لنرويجي، إضافة إلى تسيير خط طيران مباشر بين عاصمتي البلدين»^(٢)، كما أبدت إيران اهتماماً خاصاً ببعض الحركات السياسية ذات الطابع الإسلامي، التي يمكن أن تكون أدوات تخدم أهدافها في تعزيز نفوذها، فقد قامت إيران بتزويد حكومة أبي أحمد بطائرات بدون طيار في إثيوبيا خلال الصراع الدائر في منطقة تيغراي شمال إثيوبيا صيف ٢٠٢١م، كما فعلت ذلك مع السودان لتزاحم النفوذ الغربي في المنطقة وتواجه خصومها الإقليميين.

منذ بدء الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م
تحول التشيع من مجرد مذهب
ديني محصور ضمن الأبعاد الروحية
والمجتمعية، إلى مشروع سياسي دولي
يخدم أهداف الجمهورية الإيرانية، إذ
اعتمدت إيران على إستراتيجية واضحة
لتصدير الثورة، بهدف توسيع نفوذها
الجيوستراتيجي وتعزيز مكانتها بوصفها
قوة إقليمية ودولية

إستراتيجيات نشر التشيع في أفريقيا:

أ. الاستفادة من الفقر والجهل:

تقدّم إيران الدعم الاجتماعي والاقتصادي للفئات الفقيرة والمحرومة في دول أفريقيا على الرغم من أنها تعاني من ضائقة اقتصادية نتيجة العقوبات المفروضة عليها بسبب برنامجها النووي، وتبعاً لذلك فقد «رَكَزَتْ جهودها في أفريقيا والتي بها عدّة دول

منذ بدء الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م تحوّل التشيع من مجرد مذهب ديني محصور ضمن الأبعاد الروحية والمجتمعية إلى مشروع سياسي دولي يخدم أهداف الجمهورية الإيرانية، إذ اعتمدت إيران على إستراتيجية واضحة لتصدير الثورة؛ بهدف توسيع نفوذها الجيوستراتيجي وتعزيز مكانتها بوصفها قوة إقليمية ودولية، وقد كانت خطتها واضحة للسيطرة على المراكز الإسلامية المؤثرة، وإيجاد حلفاء سياسيين في المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية، ولم يكن هذا التحول السياسي محصوراً في منطقة الشرق الأوسط فحسب، بل امتد ليشمل مناطق إستراتيجية أخرى في أفريقيا.

ظهرت أطماع إيران في دول أفريقيا منذ زيارة أحمددي نجاد الدبلوماسية عام ٢٠٠٩م لعدد من الدول الأفريقية، «حيث كانت إيران تنظر لأفريقيا بوصفها قارة المستضعفين، وتمثل ثلث مقاعد الأمم المتحدة، وتشكّل نصف مجموعة عدم الانحياز، وهو ما يعني أنها حليف محتمل لها، كما أنها في الوقت نفسه تمثل ساحة مناسبة لتبني أفكار الثورة الإيرانية»^(٣)، فتركزت أهدافها في دول القرن الأفريقي، والدول الواقعة على ساحل البحر الأحمر؛ للسيطرة على المنافذ البحرية والبرية المهمة، والاستفادة منها في حال حدوث أي صراع في المنطقة، حيث تعدّ تلك المنطقة محوراً رئيساً للتجارة العالمية، ومنفذاً مهماً يصل بين آسيا وأفريقيا وأوروبا.

وقد دعمت مجموعة من الدوافع التنافسية توجّهات السياسة الخارجية لإيران في أفريقيا على اعتبارها منطقة جغرافية تعدّ من الأغنى في العالم، إذ تتنافس عليها قوى عالمية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والصين وروسيا، فسعت إيران لاستغلال ذلك التنافس لتقديم نفسها كحليف للشعوب الأفريقية في مواجهة ما تصفه بالاستعمار الجديد، وقد سعت إيران إلى استمالة الدول الأفريقية من خلال دعم خطابها التحرري الذي يناهض القوى الغربية، حيث قال نجاد في أحد تصريحاته: «هناك دولٌ تدعي أنها أمم عظمى، وعلى مرّ السنين تظلم وتستغلّ الدول النامية، وتنهب ثرواتها الطبيعية، وتسلبها حريتها، لقد حان الوقت للدول النامية في آسيا وأفريقيا أن

(١) السياسة الإيرانية والسياسة التركية تجاه أفريقيا، بوزيدي يحيى، دراسة مقارنة، مجلة قراءات أفريقية، العدد (٢١)، يوليو، ٢٠١٤م، ص (٤٠).

(٢) مقال مترجم: نشاط إيران في شرق أفريقيا، بوابة الشرق الأوسط والقارة الأفريقية، مجلة قراءات أفريقية، العدد الخامس، يونيو ٢٠١٠م، ص (١٠٨).

(٣) السياسة الإيرانية والسياسة التركية تجاه أفريقيا، ص (٤٤).

وعلى الرغم من عدم وجود بيانات متاحة عن الميول الدينية لطلاب جامعة المصطفى في الماضي والحاضر فإن إيران تستخدم هذه المؤسسة للترويج للشيعية، وكسب الدعم لنظامها وأيديولوجيتها في البلدان والمجتمعات الإسلامية الأخرى^(٣)، فالطلاب الأفارقة الذين يتخرجون من جامعة المصطفى يتم تدريب بعضهم ليكونوا دعاة ورموزاً لاستقطاب العامة من الشعب الأفريقي، مثل «أحمد عبد الله سامبي الرئيس الأسبق لجزر القمر، وإبراهيم الزكزيكي زعيم المنظمة الإسلامية النيجيرية، كلاهما قد تخرّج في جامعة المصطفى حاملاً المضامين والتوجهات التي رسّختها سنوات الدراسة والتعاون مع الجامعة»^(٤)، وتقوم إيران بدعمهم مادياً ومعنوياً مقابل تجنيدهم بوصفهم دعاة للمذهب الشيعي داخل أفريقيا، وتعدّ لهم برنامجاً مدروساً يتم تنفيذه تحت المراقبة والإشراف.

ب. التأثير عبر المراكز الثقافية والدينية:

تشهد أفريقيا تنافساً كبيراً بين القوى الإقليمية والدولية، بما في ذلك إيران التي تسعى إلى نشر الفكر الشيعي في القارة السمراء من خلال مجموعة من الوسائل الثقافية والتعليمية والاجتماعية. إذ تستخدم إيران المراكز الثقافية لتعزيز الحضور الشيعي وإحداث تأثير ملموس في المجتمعات المحلية، حيث «نشطت إيران في بناء تيارات شيعية، وبناء الحسينيات ورفدها بالكتب والمصادر، ففتحت مراكز ثقافية وتعليمية شيعية في ساحل العاج، وليبيريا، والكاميرون، ونيجيريا، والسودان»^(٥) مثل: (المركز الثقافي الإيراني في الخرطوم وكينيا- منظمة العلاقات والثقافة الإسلامية في كينيا)، ووفرت المصادر التعليمية المتنوعة وعقدت الندوات والمحاضرات ونشرت المطبوعات المجانية أو التي تباع بأسعار زهيدة لضمان انتشارها بين القراء، مستهدفةً بذلك طلاب المدارس والجامعات على وجه الخصوص.

تعتمد إيران في سياستها الخارجية على عقد اتفاقات اقتصادية، سواء مع الحكومات أو مع المؤسسات، وعلى أدوات أيديولوجية معرفية «حيث

منتجة لليورانيوم بما في ذلك زيمبابوي والسنغال ونيجيريا وجمهورية الكونغو الديمقراطية»^(١)، إذ تعدّ نيجيريا أكبر مصدر لليورانيوم في العالم. وتشمل استراتيجية الدعم التي تنتهجها إيران في أفريقيا توزيع المساعدات الغذائية، وتوفير خدمات صحية مجانية، وتنظيم برامج تعليمية لكافة شرائح المجتمع العمرية، بواسطة منظمات مختلفة مثل «الهلال الأحمر الإيراني»، و«لجنة الخميني للإغاثة»، ويتم توجيه هذه الجهود نحو المناطق التي تعاني ضعفاً في بنيتها التحتية، لتكون تلك المساعدات وسيلة للتقرب من السكان وكسب ولائهم، وبالتالي تكون مدخلاً رئيساً لنشر الفكر الشيعي.

تقدّم إيران الدعم الاجتماعي والاقتصادي للفئات الفقيرة والمحرومة في دول أفريقيا، على الرغم من أنها تعاني من ضائقة اقتصادية، وتبعاً لذلك فقد ركّزت جهودها في أفريقيا والتي بها عدة دول منتجة لليورانيوم بما في ذلك زيمبابوي والسنغال ونيجيريا وجمهورية الكونغو الديمقراطية،

ونتيجة لمعاناة الدول الأفريقية من ضعف في أنظمة التعليم وانتشار الأمية؛ تعمل المراكز الشيعية على ملء هذا الفراغ من خلال إنشاء مدارس ومراكز تعليمية تقدّم التعليم المجاني، بالإضافة إلى تقديم منح دراسية للشباب؛ للدراسة في الحوزات العلمية الإيرانية، ويتم التركيز في هذه البرامج على تدريس الفكر الشيعي وتفسير التاريخ الإسلامي تفسيراً ينفق مع فكرهم ورؤاهم، «على سبيل المثال في عام ٢٠١٥م كان هناك ٥,٠٠٠ طالب أفريقي مسجلين في فروع «جامعة المصطفى»^(٢) داخل إيران وخارجها، وقد تخرّج فيها ٥,٠٠٠ طالب إضافي في عام ٢٠١٦م، كما كان هناك ٤٥,٠٠٠ طالب مسجلين من جميع أنحاء العالم الإسلامي، منهم ١٠,٠٠٠ من الإناث. وبين عامي ٢٠٠٧م و ٢٠١٦م تخرّج من جامعة المصطفى التي تمولها إيران لغرض نشر أيديولوجيتها في جميع أنحاء العالم الإسلامي حوالي ٤٠,٠٠٠ رجل دين،

(١) إيران في أفريقيا... البحث عن موطن قدم، محمد سليمان الزواوي، قراءات أفريقية، العدد (١٥)، يناير ٢٠١٣م، ص (٢٨).

(٢) جامعة المصطفى العالمية: تأسست هذه الجامعة عام ١٩٧٩م، مقرها في مدينة (قم) في إيران، تنتشر فروعها في عدد من دول العالم، أكثرها في أفريقيا، تسعى إلى إعداد الباحثين والأساتذة ذوي الخبرة والكفاءة، ونشر تعاليم الدين الإسلامي من منظور المذهب الشيعي ضمن أنشطتها الثقافية المختلفة.

(٣) سياسة إيران الأفريقية في عهد روحاني، انكفاء إقليمي أم إعادة ترتيب أوراق؟ لطفي صور، مجلة قراءات أفريقية، العدد (٤٧)، يناير ٢٠٢١م، ص (١٢٣-١٢٤).

(٤) جامعة المصطفى في أفريقيا... النشأة ومحددات الدور والتأثير، محمد أحمد عابدي، مجلة قراءات أفريقية، العدد (٦٠)، إبريل ٢٠٢٤م، ص (١٥).

(٥) بعد رحيل رئيسي... ما مستقبل إيران في قارة الفرص الذهبية؟ غدي قنديل، مركز الدراسات العربية الأوراسية، ٣١ مايو ٢٠٢٤م.

تداعيات المشروع الشيعي على أفريقيا:

أ. زعزعة الاستقرار المذهبي:

أدى المشروع الشيعي في أفريقيا إلى انقسامات داخل المجتمعات الإسلامية، التي كانت تتمتع بتجانس مذهبي نسبي، فقد نجحت المراكز الشيعية في استقطاب شرائح من السكان عبر الدعم المالي والاجتماعي، وتقدر «نسبة السكان الشيعة بين مسلمي أفريقيا بما يتراوح بين ٥ إلى ١٠٪، وأنه ثمة أقليات شيعية كبيرة تعيش في عدد من دول أفريقيا جنوب الصحراء أبرزها نيجيريا والكونغو وتنزانيا والسنگال وغانا. وقد شهدت نيجيريا وغانا (وربما تنزانيا) تحديداً تأثراً شيعياً متجذراً مقارنة ببقية دول غرب أفريقيا»^(٤)؛ ما أثار توترات مع الأغلبية السنية، مثل التصادم الدموي الذي حدث في زاريا عام ٢٠١٥م؛ فقد داهمت سلطات الأمن النيجيرية منزل (الزعيم الشيعي إبراهيم الزكزي) فجر يوم ١٣ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٥م، فاعتقلته بعد أن قتلت عناصر من أنصاره -بينهم نائبه محمد محمود تيري- حاولوا الدفاع عنه ومنع الأمن من الوصول إليه، وذلك بعد اقتحامها تجمعا دينيا أقامته منظمة الزكزي في «حسينية بقية الله» بمدينة زاريا»^(٥). وقد أوجدت هذه الصدامات حالة من التنافس الطائفي المتصاعد؛ فالتعامل مع النشاطات الدعوية الإسلامية أصبح يروج له على أنه تطرف وإرهاب، وهذا ما أتاح الفرصة لينشر الشيعة مذهبهم ومعتقداتهم السلمية مقابل الفكر التكفيري السني العنيف (كما يدعون)، وقد ساهم ذلك في تغيير الولاءات الدينية والثقافية، وتفكيك الروابط الاجتماعية التقليدية داخل المجتمعات، ما أثر سلباً على السلام الاجتماعي، وأدى إلى إيجاد بيئة مشحونة تهدد استقرار القارة بشكل عام. «غير أن سياسة نشر التشيع تجد مواجهة متعددة المستويات، تتراوح بين الرفض الرسمي كإغلاق المملكة المغربية السفارة الإيرانية، وغير الرسمي ممثلاً في النشاط الديني والسياسي المناهض للعملية، بوصفها ضرباً لثوابت عقديّة وتهديداً لتماسك المجتمعات، مثلما عبر عنه الأزهر الشريف في زيارة نجاد الأخيرة لمصر سنة ٢٠١٢م، أو العلماء والدعاة

حاولت إيران المزاوجة بينهما بشكل كبير، من خلال الدور النشط للمراكز الثقافية الإيرانية في الترويج للمذهب الشيعي في أجزاء مختلفة من أفريقيا، حيث أنشأت إيران مؤسسة (والفجر) ومؤسسة (مزدهر) و(جامعة المصطفى العالمية) التي تمارس أدواراً اجتماعية لا تعليمية فقط»^(١) إذ تقوم المراكز الثقافية المنتشرة في الدول الأفريقية بتنظيم فعاليات مختلفة لإحياء مناسبات دينية مرتبطة بالعقيدة الشيعية، حيث يتم دعوة السكان المحليين للمشاركة بهذه المناسبات، لتكون فرصة لتعريفهم بمذهبهم الشيعي وشعائهم الدينية. كما ساعد على انتشار التشيع وجود «جاليات شيعية انتشرت وسط المسلمين في بعض الدول الأفريقية... وقد لعبت هذه الجاليات دوراً ملحوظاً في التأثير على العلاقات الإيرانية - الأفريقية على الرغم من اختلاف موقع وقوة هذه الجاليات»^(٢)، إذ يمكن أن نقول: إن وجود هذه الجاليات -اللبنانية على وجه الخصوص التي تعتنق في معظمها المذهب الشيعي- شكّل النواة الأولى للوجود الشيعي في أفريقيا على وجه العموم، «إذ تشير بعض الإحصائيات إلى أن ٣٥٠ ألف لبناني على الأقل منتشرون عبر القارة، وتمثل ساحل العاج والسنگال ونيجيريا أهم مراكز الجاليات اللبنانية المقيمة في أفريقيا، بجانب آلاف اللبنانيين الآخرين الذين يقيمون تقريباً في كل الدول الأفريقية»^(٣). كما تستخدم المراكز الثقافية وسائل الإعلام التقليدية مثل الصحف والإذاعات المحلية، إلى جانب المواقع الإلكترونية والقنوات الفضائية، مثل قناة المنتقم وقناة فدك التي تستقطب جمهوراً واسعاً -ومنه الجمهور الأفريقي- لنشر الفكر الشيعي من خلال الشخصيات المؤثرة دينياً وثقافياً واجتماعياً والتي تستطيع اللعب على وتر العاطفة الدينية لدى عامة الشعب الأفريقي.

تعتمد إيران في سياستها الخارجية على عقد اتفاقات اقتصادية، سواء مع الحكومات أو مع المؤسسات، وعلى أدوات أيديولوجية معرفية

(١) سياسة إيران الأفريقية في عهد روحاني، انكفاء إقليمي أم إعادة ترتيب أوراق؟، ص (١٢٤).

(٢) العلاقات الإيرانية الأفريقية، اتجاهات الخطاب الصحفي، هالة أحمد الحسيني، مصر العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م، ص (٤٩).

(٣) التشيع في شمال أفريقيا وجنوب الصحراء: دراسة مقارنة، بوزيد يحيى، موقع الراصد، ١٧ ديسمبر ٢٠١٧م.

(٤) المنظمات والمراكز الشيعية في غرب أفريقيا وشرقها... قراءة أولية في خرائط الانتشار والتأثير، منحة الدراسات الأمنية وأبحاث السلام، ٢٦ يوليو، ٢٠٢٤م.

(٥) إبراهيم الزكزي.. «آية الله» الأفريقي، الجزيرة نت، ٢٠١٥/١٢/١٧م.

بالاستقطاب الطائفي والتدخلات الخارجية، مما يعرقل جهودها في تحقيق تنميتها المستدامة.

تصاعد النفوذ الإيراني في القارة الأفريقية؛ ما أدى إلى إثارة مخاوف قوى إقليمية ودولية ترى فيه تهديدًا لنفوذها في أفريقيا، ونتيجة لذلك أصبحت أفريقيا مسرحًا لتجاذبات إقليمية ودولية؛ ما أدى إلى تصاعد التوترات الطائفية بين السنة والشيعة في العديد من الدول الأفريقية

خاتمة:

تشكّل القارة الأفريقية محورًا مهمًا في الإستراتيجيات الإقليمية والدولية، ما جعلها ساحة تنافس بين القوى المختلفة، بما في ذلك إيران، التي سعت عبر أدوات القوة الناعمة إلى تحقيق طموحاتها السياسية والدينية والاقتصادية. وقد أظهرت هذه الجهود تداعيات خطيرة على السلم الاجتماعي والوحدة المذهبية داخل المجتمعات الأفريقية، من خلال نشر الفكر الشيعي والتغلغل في البنى المجتمعية مستغلة ظروف الفقر والجهل التي تعاني منها القارة. إلى جانب ذلك أثار المشروع الإيراني في أفريقيا توترات طائفية ومذهبية، ما أضعف النسيج الاجتماعي، وزاد من الاستقطاب الداخلي، وفتح المجال لتجاذبات إقليمية ودولية أثرت على سيادة الدول الأفريقية واستقرارها. وفي ظلّ هذا السياق، يبرز الدور المهم الذي يجب أن تلعبه الحكومات الأفريقية في تعزيز وحدتها الداخلية، والعمل على تحقيق التنمية المستدامة بعيدًا عن التدخلات الخارجية. كما أنّ التعاون الإقليمي والدولي يجب أن يهدف إلى دعم استقرار القارة لا استغلالها لتحقيق أجندات سياسية أو مذهبية، بما يضمن أمنها وازدهارها في المستقبل، خاصة بعد سقوط النظام في سوريا، إذ يمكننا أن نقول: إنّ سقوطه يشكّل تحولًا مهمًا في تغيير موازين القوى الإقليمية والدولية، ما يؤدي إلى تراجع نفوذ إيران في أفريقيا عبر إضعاف دعمها للجماعات الشيعية وتقليص نشاطاتها الثقافية والدعوية، كما سيُفسّر كضربة رمزية لمشروعها الإقليمي، مما يعزز نفوذ الدول السنّة المنافسة ويدفع الحكومات الأفريقية لتقليل اعتمادها على التحالفات الإيرانية.

كالشيخ يوسف القرضاوي، والأمر نفسه ينطبق على الدول الأفريقية الأخرى، فكثيرون بدؤوا في التنبّه إلى الخطر الإيديولوجي للوجود الإيراني، فالنيجيريون يرفضون تدخل إيران ودعمها للإسلاميين والتشيع في الميدان السياسي النيجيري، وفي السودان بدأت حملات كبيرة للتحذير من التشيع، ودعوات واضحة من الأحزاب السياسية التقليدية وأحزاب جديدة دخلت في حكومة البشير تدعو لفك الارتباط بالمحور الإيراني، والسعي لتأمين العمق العربي^(١)، وفي عام ٢٠١٨م قام المغرب بقطع علاقاته الدبلوماسية مع إيران للمرة الثانية، متهمًا إياها بالتعاون مع حزب الله، بتقديم دعم مالي وعسكري لجبهة البوليساريو التي تطالب باستقلال الصحراء الغربية. وكانت المرة الأولى التي أقدم فيها المغرب على هذه الخطوة في عام ٢٠٠٩م بسبب اتهاماته لإيران بالسعي لنشر المذهب الشيعي داخل المغرب.

ب. زيادة النفوذ الخارجي:

تصاعد النفوذ الخارجي في القارة الأفريقية بشكل ملحوظ بعد سعي إيران لنشر مشروعها الشيعي، ما أدى إلى إثارة مخاوف قوى إقليمية ودولية أخرى مثل السعودية والولايات المتحدة، حيث ترى هذه القوى في الانتشار الشيعي تهديدًا لنفوذها في أفريقيا، ونتيجة لذلك أصبحت أفريقيا مسرحًا لتجاذبات إقليمية ودولية، فالسعودية ودول الخليج على سبيل المثال سعوا إلى مواجهة النفوذ الإيراني عبر دعم المؤسسات السنّة وإطلاق مبادرات ثقافية ودينية موازية؛ ما أدى إلى تصاعد التوترات الطائفية بين السنة والشيعة في العديد من الدول الأفريقية. بالإضافة إلى أنّ إيران استخدمت الأراضي الأفريقية لتوسيع وجودها العسكري ودعم حلفائها الحوثيين في اليمن، وهذا ما أدى إلى تهديد الأمن في الدول الأفريقية، وإدراك ما يحيط بها من مخاطر تؤثر على وحدتها المذهبية، وفي الوقت نفسه تعمل القوى الدولية مثل الولايات المتحدة على الحد من النفوذ الإيراني في إطار سياساتها لمواجهة إيران على الساحة العالمية؛ ما يزيد من تعقيد المشهد السياسي في أفريقيا. إنّ هذه التدخلات أدت إلى إضعاف سيادة الدول الأفريقية، حيث أصبحت قراراتها في كثير من الأحيان متأثرة بتلك التجاذبات، بل تجد الحكومات نفسها مضطرة للتعامل مع التحديات المرتبطة

(١) السياسة الإيرانية والسياسة التركية تجاه أفريقيا، ص (٤٥-٤٦).



دعوة

غرائز الطيور.. ألغاز تتحدى نظرية التطور

م. فداء ياسر الجندي (*)

يومًا بعد يوم يثبت بالدليل القطعي والحسي عبودية هذا الكون لله تعالى، وبطلان ما ادعاه الملاحدة من نفي وجود إله للكون، ونسبة ما فيه من إبداع ونظام للطبيعة، كما قال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَقَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالظواهر الطبيعية المتعلقة بالكائنات الحية -بشرية أم حيوانية أم نباتية- تعجز نظرية التطور عن تفسيرها وتقف أمامها حائرة، وفي هذا المقال استعراض لبعض الظواهر المتعلقة بنوع واحد من هذه الكائنات وهي الطيور التي توضح ذلك.

علمًا بأن الظواهر التي تعجز النظرية عن تفسيرها عددها بعدد الكائنات، بل بعدد كل عضو ووظيفة وجهاز من أجهزة كل كائن حي، بل هي بعدد الخلايا الحية الموجودة في أرضنا من كل لون وجنس ونوع، بشرية كانت أو حيوانية أو نباتية.

كيف تعلّمت الطيور رعاية بيوضها؟

نعلم أنّ الطيور تتكاثر بالبيض، وأنّ نمو الأفراس داخل بيوض الطيور لا يحدث ويكتمل إلا إذا مرّ بفترة حضانة، تجلس خلالها الطيور على بيضها، لمدة تختلف باختلاف أنواع الطيور، وبعد

عندما يشعر التطوريون أنّهم محرّجون وعاجزون عن تقديم الدليل العلمي على خرافتهم؛ يتهرّبون من الإتيان بالدليل إلى زعمهم المأثور المكرّر في معظم كتبهم وأبحاثهم وهو: أنّ نظرية التطور هي النظرية الأكثر قبولاً لتفسير عدد من الظواهر الطبيعية المتعلقة بالكائنات المختلفة.

وفي هذا المقال سنستعرض نقطة من بحر الظواهر الطبيعية المتعلقة بالكائنات الحية، والتي تعجز نظرية التطور عن تفسيرها، وما سنستعرضه هو بعض الظواهر المتعلقة بالطيور،

(*) كاتب من سورية.

وخصائص تمكّنه من الطيران لاحتاج ما يعرفونه منها (وهناك الكثير مما لم يكتشفوه حتى الآن) إلى مجلّدات ورسومات تفوق حجمًا وتفصيلًا وكميّة كلّ ما أنتجه مهندسو الطيران من وثائق وتصاميم ورسوم حتى الآن.

والطيور أعزائي القراء لا تحتاج مطارات، ولا صيانة، ولا تحقّقًا من الجودة، ولا غير ذلك ممّا يتخذة البشر لضمان أمن طائراتهم، فلم نسمع بصقر يمكث في عشه صباحًا لساعات يراجع المئات من البنود التي تضمن سلامة طيرانه، كما يفعل قائد الطائرة المدنية قبل الإقلاع، ولا نعرف صقرا يحتاج للإقلاع والهبوط إلى مطارات ومدرجات وأبراج مراقبة، فلديه نظام اتصال وطيور عجيب، وإن هي إلا ضربة بجناحه وإذا به يبدأ التحليق، ولا يحتاج إلى مساحة لهبوطه مهما بلغت سرعة انقضاضه إلى أكثر من موطئ قدميه، ولا يلزمه صيانة ولا قطع تبديل، ورغم كلّ ذلك لم نسمع بأن صقرا ضلّ طريقه أو أخطأ هدفه أو هبط هبوطًا اضطراريًا أو أصاب جهاز اتصاله عطل فهوى على الأرض وتحطم!

وسؤالنا للتطوريين: كيف تفسّر آليات التطور تمتع الطيور بالقدرة على الطيران بهذا الشكل المذهل؟ كيف اكتسبت الديناصورات (وهي أسلاف الطيور كما يُجمع كلّ التطوريين) كلّ هذه التغيّرات الجذرية على أجسامها وأنظمتها الحيوية فأصبحت تحلق في السماء برشاقة وروعة وخفة واقتدار، بعد أن كانت تدبّ على الأرض ببطء وثقل؟

كيف تعلمت الطيور بناء أعشاشها؟

قد لا يعلم أكثرنا أنّ الطيور عابرة في الهندسة والعمارة، فكلّ نوع منها له طريقته الخاصّة وأسلوبه المميّز في بناء العش الذي تضع فيه أنثاه بيضها، وترقد عليها حتى تفقس، والأمثلة كثيرة، نذكر منها أمثلة ثلاثة:

١. الطائر ذو المنقار الضخم، Hornbill:

ويسمى أيضًا (أبو قرن)، وموطنه في الهند ونيبال وبوتان، وقصة بناء عش هذا الطائر عجيبة، تبدأ بها الأنثى حين تبحث عن تجويف مناسب في إحدى الأشجار، ثم تأتي ببعض الطين وتسدّ فتحة التجويف إلا ثغرة تسمح بمرورها إلى داخله، فإذا استقرت داخله يأتي الذكر فيغلق بالطين أيضًا

انقضاء المدّة المعلومة تفقس البيوض وتخرج منها الفراخ خلقًا كاملًا سويًا.

ومن عجائب فترة الحضانة هذه أنّ الأم لا تكتفي بالجلوس على البيض فحسب، بل تقوم من فينة لأخرى بتقليبها، لتنال كلّ جوانب البيضة ما يكفي من الحرارة اللازمة من أجل تخلّق الفراخ وتحول السوائل والأغذية التي تحتويها البيضة إلى كائن حي، إلى طائر فرخ كامل الأعضاء.

ونسأل التطوريين: كيف يفسّر التطور ذلك التقليب والتحرك الذي تقوم به الأم لبيضاها حتى يفقس؟ اشرحوا لنا كيف (تطوّرت) هذه المهارة الفطرية عند الطيور بواسطة آليات التطور؟

كيف عرف الطائر الأول الذي باض الدفعة الأولى من البيوض أنّ عليه أن يقلبها؟ لأنّه لو لم يفعل لما فقس بيوضه ولما جاءت ذريته، ولكن الجيل الأول هو الأخير، فهلا فسّرتم لنا ذلك لو تكرّمتم؟

سؤالنا للتطوريين: كيف تفسّر آليات التطور تمتع الطيور بالقدرة على الطيران بهذا الشكل المذهل؟ كيف اكتسبت الديناصورات (وهي أسلاف الطيور كما يجمع كلّ التطوريين) كلّ هذه التغيّرات الجذرية على أجسامها وأنظمتها الحيوية فأصبحت تحلق في السماء برشاقة وروعة وخفة واقتدار، بعد أن كانت تدبّ على الأرض ببطء وثقل؟

كيف اكتسبت الطيور القدرة على الطيران؟

هل شاهدت عزيزي القارئ صقرا محلقًا في السماء؟ لا يستطيع عالم أن يجادل في أنّ تصميم الصقر ككائن مؤهل للطيران لا يمكن مقارنة دقته وروعته وبراعته وكلّ ما يتعلّق به بأيّ تصميم لأيّ آلة طائرة اخترعها الإنسان؛ فصنع الإنسان متخلّف جدًّا عن روعة الصقر، (وأيّ طير آخر)، ومجرّد المقارنة فيها إجحاف للكائن الحي، فكلّ شيء في الصقر من أصغر شعرة في ريشة جناحه إلى أكبر عظمة في جسمه مهيبًا لمنحه القدرة على الطيران والمناورة والإقلاع والهبوط تصل إلى حدّ يفوق الخيال، ولو أراد العلماء أن يشرحوا ما يملكه الصقر (أو أيّ طائر آخر) من أجهزة وميزات



الطائر الخيَّاط، Tailor bird



الطائر ذو المنقار الضخم، Hornbill

الشجر الكبيرتين عشا على شكل فنجان، أليس هذا أمراً عجيّباً؟^(٢).

٣. طائر الغرّة Horned coot:

وهذا الطائر لا شبيه لطريقة بناء عشه من حيث المكان الذي يختاره؛ فهو طائر مائي يبني عشه على جزيرته الخاصة! نعم، صدق عزيزي القارئ أو لا تصدق، فبعد أن يحدّد المكان الذي يريد فيه بناء الجزيرة، ويكون عادة على شاطئ البحر في مكان يتراوح عمقه ما بين متر إلى متر ونصف، يبدأ بجمع الأحجار بمنقاره ويلقيها في المكان المطلوب، ويستمر في ذلك حتى تظهر الجزيرة فوق الماء، ويعلم المهندسون أنّ الجزيرة يجب أن تبدأ بقاعدة واسعة في قاع الماء ثم تضيق صعوداً حتى تبلغ مساحتها مساحة العش المطلوب فوق سطح الماء، وهذا ما يحدث بالضبط، إذ قد تبلغ مساحة القاعدة أربعة أمتار مربعة، وقد يبلغ وزن الأحجار التي يستخدمها هذا الطائر لبناء عشه أكثر من طن، حتى إذا ظهرت الجزيرة واستوت يبدأ بجمع المواد المطلوبة من قش وأغصان وغيرها ويبني عشه في جزيرته الخاصة^(٣).

ما بقي من الفتحة إلا ثقباً صغيراً يكفي لإدخال الطعام إليها، تقوم الأنثى بحضن البيوض حتى تفقس، وخلال ذلك يأتيها الذكر بالطعام من خلال هذا الثقب، ويستمر في ذلك حتى تفقس البيوض، فيستمر الذكر في جلب الطعام للأنثى ولفراخها، وبعد أن تكبر الفراخ قليلاً تخرق الأم الفتحة وتخرج منها، ليحدث هنا أمر عجيب جداً؛ وهو أنّ الفراخ تقوم بإصلاح الخرق الذي أحدثته الأم، وبعد ذلك يستمر الذكر والأنثى كلاهما بجلب الطعام للفراخ، حتى إذا اشتد عودها وأصبحت قادرة على الطيران، تقوم بخرق فتحة التجويف من جديد وتخرج من عسها لتبدأ حياتها الجديدة^(١).

٢. الطائر الخيَّاط، Tailor bird:

واسم هذا الطائر الذي يعيش في جنوب آسيا مشتق من طريقة بنائه لعشه، فهو يقوم حرفياً بخياطة عشه؛ إذ يعمد إلى ورقتين كبيرتين من أوراق الشجر فيثقب أطرافها بمنقاره، ثم يقوم بصنع خيوط مما تيسر له من مواد الطبيعة حوله، من قطن أو لحاء أو حتى من بعض بيوت العنكبوت، ثم يستخدم منقاره كأبرة ويقوم بخياطة الورقتين بواسطة تلك الخيوط، حتى يصنع من ورقتي

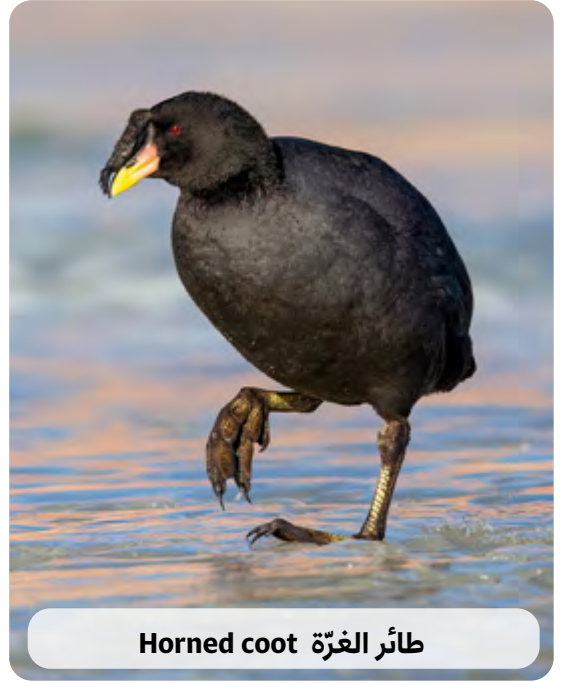
(١) المرجع: <https://royalaficansafaris.com/newsletter/did-you-know>

(٢) المرجع: <https://www.youtube.com/watch?v=zGqCxZMb1>

(٣) المرجع: <https://www.youtube.com/watch?v=Olram0uU4>



طائر الخرشنة القطبي Arctic tern



طائر الغرّة Horned coot

هجرات الطيور، ألغاز حيرت العلماء⁽¹⁾:

عندما تهاجر الطيور وغيرها من الكائنات فإنها تتصرّف بشكل غريزي بحث ترك العلماء مشدوهين متحيرين، ولم يستطيعوا تفسير هذه الظاهرة، وكما في حالة بناء الأعشاش فإنّ الأمثلة على هجرات الطيور المدهشة كثيرة، وسنكتفي منها بثلاثة أمثلة مدهشة:

1. طائر الخرشنة القطبي Arctic tern:

فهذا الطائر العجيب يقطع سنويًا ما يعادل ٣٣٠٠٠ كيلومترًا، فهو يمضي الصيف في القطب الشمالي، حتى إذا اقترب الشتاء عبّر الأرض من أقصاها لأقصاها ليمضي الشتاء قرب القطب الجنوبي، (فشتاء الشمال هو صيف الجنوب)؛ وذلك لأنّ المناطق القطبية وحدها هي التي تحتوي على مصادر وفيرة من الطعام المناسب لهذا الطير، وكذلك المناخ المناسب، ولكن يتساءل العلماء: كيف يعلم هذا الطير بوجود الغذاء المناسب له وبكميات وفيرة على هذا البعد الشاسع؟ وكيف يفسّر التطوريون هذا السلوك المدهش وتلك الهجرة العجيبة؟ هنا يصمت التطوريون؛ فلا جواب عندهم.

وبعد استعراض هذه الأمثلة الثلاثة يحقّ لنا أن نسأل: كيف يفسّر التطور وجود هذه القدرة الهندسية الفائقة لدى الطيور على بناء أعشاشها؟ هل يمكن تفسير ذلك بآليات التطور: الطفرات والاصطفاء الطبيعي؟ هل كانت أسلافها لا تملك هذه القدرة، فحصلت طفرة جينية لبعضها فأصبحت بسببها قادرة على ذلك، ثم جاء الاصطفاء الطبيعي فأبقى على سعيد الحظ فحصل على تلك الطفرة، وانقرض الباقون؟ إنّ حصول هذا الأمر مستحيل لسبب سنذكره لاحقًا، بعد أن نذكر أعجوبة أخرى من أعاجيب الطيور، وهي هجرة بعض أنواعها بطرق ما تزال تحير العلماء.

قد لا يعلم أكثرنا أنّ الطيور عباقرة في الهندسة والعمارة، فكلّ نوع منها له طريقته الخاصّة وأسلوبه المميّز في بناء العش الذي تضع فيه أنثاه بيضها، وترقد عليها حتى تفقس.. فكيف يفسّر التطور وجود هذه القدرة الهندسية الفائقة لدى الطيور على بناء أعشاشها؟ هل يمكن تفسير ذلك بآليات التطور: الطفرات والاصطفاء الطبيعي؟

(1) المرجع: كتاب خرافة التطور، تأليف: (روبرت جيمس غالغي)، ترجمة: فداء ياسر الجندي.



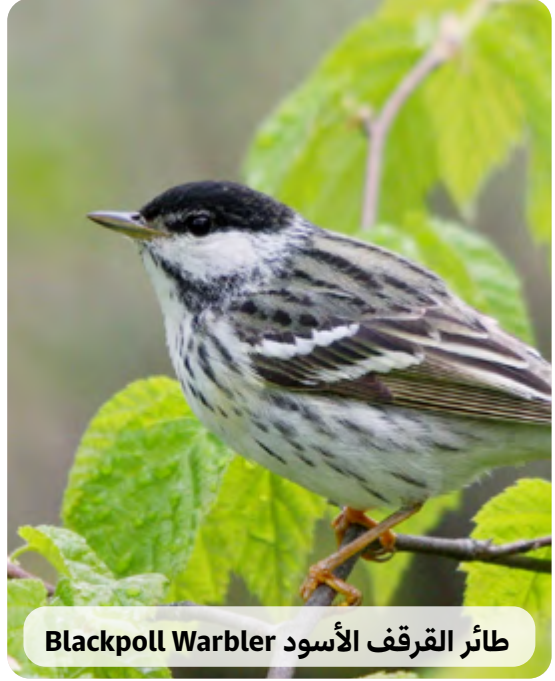
طائر الوقواق long-tailed cuckoo

بالرياح المواتية مع أنّ وجهته النهائية مختلفة؟ وكيف يعلم أنّه على هذا الارتفاع بالذات وفي ذلك المكان بالذات وفي ذلك التوقيت من العام ستكون هناك رياح مواتية لإكمال رحلته بسهولة إلى أمريكا الجنوبية؟ وكيف يعلم الاتجاهات بشكل عام؟

٣. طائر الوقواق long-tailed cuckoo:

الذي يستوطن نيوزيلاندا، فهذا الطائر يهاجر من جزر تقع في وسط المحيط الهادي ليضع بيضه في نيوزيلاندا، ثم يعود إلى الجزر التي جاء منها، وبعد أن تفقس البيوض وتخرج الفراخ وتقوى على الطيران، تهاجر مسافة ٦٠٠٠ كيلومتر إلى الجزر التي جاء منها أبائهما، فتلقي بهم، نعم، صدّقوا أو لا تصدّقوا، تهاجر خلف آبائهما إلى أماكن لم تسافر إليها من قبل، وعبر مسافات شاسعة وفوق بحر خال ليس فيه أي علامة يمكن أن تتبّعها، فكيف يفسّر التطوريون هذه الهجرة العجيبة؟ وأعجب ما في هذه الهجرة أنّ فراخ الوقواق تعود إلى حيث جاء أبائهما من طريق لم تسلكه من قبل، لأنّ الأنثى تضع بيضها ثم تعود قبل أن تفقس، وبعد أن يفقس البيض وتنمو الفراخ بحيث تصبح قادرة على الطيران تطير عائداً إلى الجزر التي جاء منها أبائهما، فكيف تعرف الطريق؟

مصادر وفيرة من الطعام لهذا الطير، وكذلك المناخ المناسب، ولكن يتساءل العلماء: كيف



طائر القرقف الأسود Blackpoll Warbler

٢. طائر القرقف الأسود Blackpoll Warbler:

هو أحد أنواع طائر السنونو في أمريكا الشمالية، وهجرته لا تقلّ غرابة عن هجرة طائر الخرشنة القطبي، فهذا السنونو الصغير الذي لا يصل وزنه إلى ثلاثة أرباع الأونصة، يهاجر كلّ خريف من ألاسكا في أمريكا الشمالية قاطعاً القارة الأمريكية عرضياً حتى يصل إلى الشواطئ الشرقية من كندا، وهناك يمكث فترة يتزوّد فيها بالطعام فيزداد وزنه قليلاً، وينتظر وصول جبهة هوائية باردة، ليطيّر معها في الطريق إلى محطته النهائية في أمريكا الجنوبية، ولكن ليس بخط مستقيم، وهنا يكمن الأمر المدهش والمذهل، حيث يطير أولاً باتجاه الجنوب الشرقي وكأنّه مهاجر إلى أفريقيا، ثم في نقطة ما من المحيط الأطلسي، وعلى ارتفاع ثلاثين كيلومتراً فوق سطح البحر يلتقي بتيارات هوائية متجهة إلى أمريكا الجنوبية، فيطيّر في اتجاه هبوبها لتجعل طيرانه سهلاً سريعاً ميسراً إلى أن يصل إلى محطته النهائية، حيث تكون أمريكا الجنوبية تتمتع آنذاك بفصل الصيف.

إنّ هذه الهجرة العجيبة تطرح أسئلة محيرة يعجز التطوريون عن تفسيرها: كيف يعرف السنونو أنّ عليه أن ينتظر في كندا حتى وصول الجبهة الهوائية الباردة؟ لماذا يطير على ارتفاع ثلاثين كيلومتراً حيث الأوكسجين يقل بنسبة ٥٠٪ عن سطح الأرض؟ لماذا يتّجه نحو أفريقيا ليلتقي

في الصيف لتأكله في الشتاء، وكيف وكيف وكيف؟ كيف تفسّر نظريّة التطوّر وآلياتها تلك الغرائز التي يعجز العادُّ عن إحصائها؟

إنّ الذكاء الغريزي الموجود الذي يتمثّل في أنماط سلوك حكيمة مدروسة في الطيور والأسماك والحشرات وغيرها شكّلت معضلة لا حلّ لها حيرت دارون نفسه، والذي كتب في كتابه (أصل الأنواع) يقول: «إنّ في كثير من الغرائز ما يبعث على العجب، حتى إنّ نشوءها وتطوُّرها قد يكون من الصعوبة بحيث يدفع القارئ إلى رفض نظريّتي جملة، ومن أجل أن أتابع الكلام فيها يجب أن أتبهّ على أني لست بمسوق إلى البحث في أصل القوى العقلية أكثر مما أجد نفسي في حاجة إلى الكلام في أصل الحياة ذاتها»^(١).

أما بالنسبة لنا نحن المسلمين فإن تفسير هذه الظواهر وأمثالها، مما لا يعد ولا يحصى، ليس لغزاً ولا معضلة؛ لأننا قرأنا في الآية ٥٠ من سورة طه قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

غرائز الطيور وعجائب أحوالها
وتصرّفاتنا ليست بالنسبة لنا نحن
المسلمين لغزاً ولا معضلة؛ لأننا نعلم أنّ
الله خلقها وألهمها وهداها إلى ما تصلح
معه معيشتها

يعلم هذا الطير بوجود الغذاء المناسب له وبكميات وفيرة على هذا البعد الشاسع؟ وكيف يفسّر التطوريون هذا السلوك المدهش وتلك الهجرة العجيبة؟

عندما تهاجر الطيور فإنّها تتصرّف بشكل غريزي بحث بحثاً عن الطعام الوفير والمناخ المناسب، والتساؤل: كيف يعلم هذا الطير بوجود الغذاء والطقس المناسبين على هذا البعد الشاسع؟ وكيف يفسّر التطوريون هذا السلوك المدهش وتلك الهجرة العجيبة؟ إن هذا السلوك قد ترك العلماء مشدوهين متحيرين، لم يستطيعوا تفسير هذه الظاهرة

هل من تبرير تطوُّري لهذه الغرائز؟

رأينا في الفقرات السابقة عدداً من الأنماط الغريزية التي تعجز آليات التطوّر عن تفسيرها، وفيها ردّ حاسم على زعم التطوريين أنّ التطوّر هو التفسير المقبول الوحيد لتنوّع الكائنات ولما تتمتع به من صفات وخصائص وقدرات، فما نحن لدينا ثلاث غرائز يستحيل تفسيرها، لأنّها ليست شيئاً يمكن أن يكتسبه الكائن بتطوّر أو طفرات أو تجربة، ولا يمكن إلا أن تكون موجودة في الكائن منذ بداية وجوده.

لو أنّ الطيور الأولى لم تكن تعلم أنّ عليها تقليب بيضها لانقرضت، ولو أنّها لم تعلم كيف تبني أعشاشها لانقرضت، ولو أنّها لم تكن تعرف كيف تهاجر قاطعة القارات والبحار لتصل إلى أماكن تستطيع فيها الحياة لانقرضت، ونعود ونكرّر فنسأل: كيف يفسّر التطوّر والتطوريون وجود هذه الغرائز في الطيور؟

هذا لا بدّ من التنويه أنّه لا يوجد كائن حيّ واحد لا يتمتّع بغرائز ما كان ليعيش بدونها، وكان لينقرض لو لم تكن موجودة منذ وجد، وما ذكرناه عن غرائز الطيور هي مجرد أمثلة واضحة، وإلا فكيف تعلّمت العنكبوت كيف تبني بيتها؟ وكيف تعلّمت النحلة كيف تبني الخلايا وتصنع العسل، وكيف تعلّمت النملة كيف تخبئ طعامها

(١) أصل الأنواع، لتشارلز دارون، ترجمة: إسماعيل مظهر، ص (٤١٩).



تزكية

التربية بالقدوة قبل التلقين

أ. هدى عبد الرحمن النمر^(*)

تعلّم الأطفال الأول يكون من خلال النظر إلى سلوك والديهم؛ لا من خلال تلقّي توجيهاتهم المباشرة. وإذا اعتمدت التربية على التوجيهات دون التفاعل فستحوّل إلى صراع بين الوالدين والطفل، وأفضل مناهج التربية الموافقة للفطرة هي ما تكون مزيجاً من المعاشية والتفاعل بين ممارسات الوالدين وملاحظة الطفل، بحيث يكون توجيه الطفل متسقاً معها؛ لا معاكساً لها.

أهمية التربية بالقدوة في تشكيل الشخصية:

عمّا ينشدان بُنيانه في أولادهما بالقوة. فلأنّ ينهض طفل في جوف الليل ليشهد أباه يصليّ خالياً ويدعو الله؛ خيرٌ وأبقى في نفسه من ألف محاضرة في فضل قيام الليل ممن يقضيه ساهراً أمام التلفاز. وما ظنك بمن ينشأ على مرأى أمّه تقوم الليل أو تصطحب بترتيل القرآن، وعلى والده حريصاً على صلاة الجماعة على وقتها أو طلب العلم النافع، وعلى والديه يتحاوران بأدب ويتناقشان نقاشات هادفة يُشركانه فيها، ويجتمعون في حلقات سمر ومطالعة مشتركة؟ هكذا تكون التربية الحقة، التي لا تتأتّى إلا بأن يصدق الوالدان في معاشية ما يزعمان أنّهما يودّان تربية أولادهما عليه؛ لأنّ بيئة التربية ليست منفصمة عنهما وعمّا هما عليه، بل هي في الأساس انعكاس حيّ لحقيقة حالهما ومدى تزكّيهما.

يتعلم الناشئ بالقدوة فوق ما يتعلم بالتلقين؛ لأنّ التقليد يتوافق مع الفطرة، بخلاف الانصياع للتوجيهات المباشرة التي قد يتمرد عليها. وعلى ذلك، فكثير من الأعراف المنزلية السائدة: تحوّل التربية من ميدان تنشئة وتهذيب وصياغة شخصية سليمة إلى ميدان حرب يتدافع فيه السباب والصياح، وتهطل فيه إملاءات الأوامر على الناشئ كأنّه عسكري آلي، أو إلى ساحة إقطاعية وملكيّة شخصية يتمّ التحكم فيها تحكماً خانقاً، أو إلى ملعب مفتوح يُترك للناشئ فيه الحبل على الغارب بدعوى حريته واستقلال شخصيته!

فإذا اتكأت منهجية الوالدين التربوية على كثرة الصياح والأوامر، كان ذلك مؤشراً على مدى بُعدهما

(*) كاتبة ومؤلفة ومتحدّثة في الفكر والأدب وعمران الذات.

وهذا نموذج تطبيقي في التربية بالقُدوة مع التدرج التوجيهي:

حكى سهل بن عبد الله التُسْتَرِيُّ: «كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي خالي يوماً: «ألا تذكر الله الذي خلقك؟» فقلت: «كيف أذكره؟» قال: «قل بقلبك عند تقبُّك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرَّك به لسانك: الله معي، الله ناظرٌ إلي، الله شاهدي». فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: «قل في كلِّ ليلة سبع مراتٍ». فقلت ثم أعلمته، فقال: «قل ذلك كلِّ ليلة إحدى عشرة مرة»، فقلته، فوقع في قلبي حلاوته! فلما كان بعد سنة قال لي خالي: «احفظ ما علمتُك ودُم عليه إلى أن تدخل إلى القبر فإنه ينفَعك في الدنيا والآخرة». فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لذلك حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوماً: «يا سهل، مَنْ كان الله معه وناظرًا إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية»^(١).

وفي المقابل، كثر الخلل بين التربية بالقُدوة والتوجيهية التي ترشد بنية شخصية الناشئ، والتربية على التبعية العمياء التي تطمسها. وبسبب ذلك الخلل ظهرت المذاهب الداعية لترك الحبل على الغارب للنشء بدعوى تشجيعهم على الاستقلال وبناء شخصيات قوية! ورأس الخلل حقيقةً هو غياب المعرفة النظرية الصحيحة مع استدامة لما ورثاه سابقاً من صور ممارسة عملية كثير منها مذموم، وبالتالي فقدانهم لركني الرشاد والحكمة في كيفية توجيه شخصيّة الطفل توجيهًا بنائيًا لا أليًا. فالتربية المتزنة بالقُدوة والتوجيه هي التي تتمي مدارك الناشئ على أساس تمكينه هو من توجيه زمام نفسه توجيهًا رشيدًا حين يبلغ سنّ الرشد، وأن يكون له من نفسه على نفسه رقيب وواع.

إذا اتكأت منهجية الوالدين التربوية على كثرة الصياح والأوامر، كان ذلك مؤشراً على مدى بُعدهما عما ينشدان بُنيانه في أولادهما بالقوة. فلأن ينهض طفل في جوف الليل ليشهد أباه يصلي خاليًا ويدعو الله؛ خيرٌ وأبقى في نفسه من ألف محاضرة في فضل قيام الليل ممن يقضيه ساهراً أمام التلفاز

مساوئ التربية بالتلقين وتوريث أنماط التدين على ما فيها من علات:

كون الوالدين قدوة يعني أن يغرّسا في الأبناء روح الدين، لا أن يُورثاهم مجرد صور تديّنهما، وهذا المزلق الثالث الذي يقع فيه مَنْ يريد بحسن نية أن يُنشئ أولاده «متديّنين»، لأنّ مفهومه للتربية الملزمة أن يستنسخ عنه صورة التزامه هو بالدين على ما قد يكون فيها من علات، بدل أن يوجّههم لتعلّم دينهم من موارده الأصيلة ومنابعه الصافية وأهله الراسخين في علمه.

هذا النمط التربوي من توريث التدين ينطوي على ثلاثة مساوئ كبرى:

وفي موقف آخر يؤكّد على التربية بالقُدوة في العبادات خاصّة، يحكي سيدنا ابن عباس رضي الله عنه صلّاته مع النبي صلى الله عليه وآله بنفسه فيقول: «بت عند خالتي ميمونة ليلة، فقام النبي صلى الله عليه وآله من الليل، فلما كان في بعض الليل قام النبي صلى الله عليه وآله فتوضأ من شئٍ معلق وضوءاً خفيفاً، وقام يصلي، فتوضأت نحواً مما توضأ، ثم جئت فقمّت عن يساره فحولني فجعلني عن يمينه، ثم صلى ما شاء الله»^(٢).

هكذا يُشربُّ الأبناء جوّ التنشئة نفسياً ووجدانياً كالإسفنجة، قبل عقْلِهِ وفهمه فكرياً، ويبدأ هذا التشربُّ منذ لحظة ميلاد الطفل وربما أسبق، لكنّ الوالدين ينشغلان عادة عن سنوات التشربِّ والمحاكاة في تكوين الطفل بإعداد خطط التربية لسنوات العقل، فينتظران حتى يبلغ الطفل سن «الفهم» لبيدأ رحلة التلقين والتوجيه والأوامر، التي هي في كثير من الأحيان مخالفة -صراحةً وضمناً- للأجواء النفسية والوجدانية التي تشربها الطفل بالفعل من سلوكها وسلوك البيئات التي عرّضوه لها، وبذلك تتحوّل عملية التربية من غرس طبيعي ينسجم فيه فكر الطفل ويتسق نموّ مداركه مع ما تُعوّده في المحيط الغالب إلى غرس قسريٍّ لما يُمليه الوالدان معاكساً لما يشهده الطفل!

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٧٤/٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨).

مساوئ التربية بالتلقين والتوريث التقليدي لأنماط التدين



العرف المحترم، فترث البنت -إذا ورثت- صورة تغطية معينة للرأس، تعتمد صحتها أو خطؤها على مدى حسن تطبيق الأم، ثم لا يكون تغطي الفتاة عن قناعة تعبدية حقة بقدر ما هو تعود أو تبعية لأوامر الكبار، وذلك إذا قبلت أن تلتزم، ولم ترجع عنه لاحقاً لهشاشة بنيان عقيدتها! أين ذلك من الأم التي تُعنى بالتدرج في بيان المبادئ والمفاهيم الكامنة وراء سمت المسلمة عامة، وبيان قدر جزئية الحجاب في منظومة التصور الكلي لتشريع الخالق وامتثال المخلوق... إلخ. يمثل تلك الخلفية الراسخة، تبادر الصبية حين تبلغ لإجابة أمر ربها على وجهه، ويندر أن تتزعزع مهما رأت من مخالفات قريناتها حولها، بل وتكون أحرص على الاستمساك بما هي عليه من حقٍ لِمَا وعت من أصوله، ومأ صحّ عندها من فهم منطقها واستشعار قدره في منظومة التصور الشرعي للوجود ككل. وتفشي موجات التذبذب في خلع الحجاب ولبسه بين فتيات المسلمين -أو للدقة ما يصحّ منه أن يُسمّى حجاباً- ليس إلا انعكاساً لآفات هشاشة البناء العقدي والبنية الفكرية، ولأثر اضطرابات التنشئة على الشخصية إجمالاً.

١. غياب القناعة والراسخة وضعف اليقين:

فتجد أنّ الوالدين يسلكان مسلك الإدارة الآلية نفسه من الأوامر والنواهي، لكن بصيغة دينية هذه المرة: «صل»، «احفظ»، «صم»... دون جهد حقيقي في زرع قناعة أصيلة بعقيدة متكاملة يصدر عنها الناشئ من تلقاء نفسه بعدها. ومشكلة التلقين العاري عن غرس اليقين أنه يسلب من النشء روح الدين وطاقة تجديد الإيمان فيهم، بما يجعلهم صوراً جوفاء من التدين المستنسخ ليس إلا، ومهما حسّن مظهرهم وأداؤهم فداخلهم غالباً كاطبل الأجو، لا يعي منطق الدين ولا مقتضيات العقيدة، وإنما هي ترانيم تُرتل بلا وعي لدلالاتها، وواجبات تؤدّى بلا إدراك لمقاصدها، وبالتالي تعاني هذه الفئة حين تشبّ عن الطوق وتتعرّض لخبرات خارج المألوف، فإذا بدّينها يُجرّح عند أول حافة حادة، بدل أن يثبت لو كان قام على ركن شديد. وإن معركة هذا الزمان هي قناعات تزرع في النفوس لا أجهزة تُنزع من الأيدي!

مثال ذلك: من تربيها والدتها على تقليد «صورة» تحجبها عند البلوغ في سياق مفاجئ غير مُمهّد له، بعد سنوات من تعويدها لبس المكشوف والإسراف في التأنق والتعجّج بما يجاوز الشرع وربما حتى

٢. التعمُّد الآلي على الالتزام بقوالب صمّاء دون فهم منطقتها:

يُعتبر الطفلُ والديه بالفطرة مرجعيته المطلقة في سنوات التلقّي؛ لذلك يكون من أصول التربية تنبيهه لكونهما نفسيهما متبعان لمرجعية هي التي تحكمهم جميعاً؛ فالقدوة الحقّة للطفل لا تتمثل في والدين يجيبان عن كلّ تساؤلاته بما يعرفان أو يظنّان أنّهما يعرفان على الدوام، بل فيمن يمكن أن يقولوا أحياناً: «لا أدري، تعال لنسأل أهل العلم»، أو «هذا مبلغ علمي لكن فلننتهت»، وشتان بين من يربّي ابنه على أنه هو بذاته المرجعية، وبالتالي يكون ابنه على الحقيقة تبعاً له هو، ومن يربّي ابنه على أنه وابنه وغيرهم متحاكمون لمرجعية مهيمنة عليهم، وكلهم بلا استثناء تبع لها، ولو كان معني ذلك أن يظهر الوالدان نفسيهما على خطأ، فالحق أكبر من ذوات الأشخاص، وهو أحق أن يتبع حيث كان، بذلك يغرسان في الطفل روح التساؤل الحق والاستفهام للتعلّم، والحرص على التنبّه من المعلوم، والرسوخ فيما يتعلّم... إلى آخر أصول البنية الفكرية السليمة.

وهكذا بدل أن ينشأ الناشئ على «روتين» عدد الركعات أو صفحات الأوراد التي يلزمه بها والداه أو أحدهما، وبدل أن يكون في ذهن الوالدين قالبٌ تدينّ يحاولان تطبيقه قسراً على كلّ الأبناء دون تمييز، ينشأ الناشئة على معاني التقوى والرجاء والخشية والرهبّة التي تدفعهم دفعاً لطلب المعالي والتدرّج في عمق التدين وقوته، بحسب طاقات كلّ واستعداداته الفطرية والكسبية؛ فبواعث العمل لله مُنطلقاتها واحدة، ثم تزهر فروعها في التطبيق بحسب ما يفتح الله على عباده. فلعلّ ابناً فتح له في باب الصيام وإن لم يقم الليل، ولعلّ ابنةً فتح لها في تلاوة القرآن وإن لم تكثر صيام النفل كأمها، ولعلّ أحد الأبناء فتح له في سرعة حفظ القرآن أكثر من أخيه المحبّ للإنفاق في وجوه الخير، بينما ثالث مُيسّر له الدعوة وحسن البيان... وهكذا تكون كلّ هذه المدارج والدرجات مقبولة ومحمودة في الأسرة، فتقوي أواصر التكامل والتواصي بين أفرادها، بدل أن تكون سبب أحقاد تنافسية أو مشاحنات مقارنات جائرة بين الإخوة.

يُعتبر الطفلُ والديه بالفطرة مرجعيته المطلقة في سنوات التلقّي؛ لذلك يكون من أصول التربية تنبيهه لكونهما نفسيهما متبعان لمرجعية هي التي تحكمهم جميعاً

٣. استبدال المصطلحات الشرعية بأخرى يُضعف أثر دلالتها:

وهذه ظاهرة تنشئة النشء على مبدأ «الصحّ» و«العيب»، المرادف ل «أمام الناس» و «من وراء الناس». فلا تكاد تطرق أسماع الأطفال ألفاظ «الحرام» و«الحلال» في مقابل ذينك اللفظين، إلا -ربما- متأخراً جداً، كجزء من منهج ديني للامتحان المدرسي لا التطبيق الحياتي، أو كمصطلحات «ثقافية» بوصفهم ذوي ثقافة إسلامية! وما لا ينتبه له من يبدأ في تربية ناشئ بمرعاة نظر الناس واعتبار آراء الناس أنه يربيه ضمناً على أساس «الخوف» لا «التقوى». فما دام الناس لا يرون العيب فلا عيب في فعله، وما داموا لا يشهدون عمل الصحيح فما عاد للقيام به قيمة، أما نفسية التقوى فتقوم على مراقبة ربّ الخلق في خاصّة النفس، بغضّ النظر عن حضور الخلق أو غيابهم.

فلا عجب من ثمّ أن تنشأ أجيالٌ وآفات الرياء والتسميع والشهرة والعُجب طبعٌ مرگب فيها من الصّغر، لا آفة طارئة أو عارضة عليها في الكبر! وأن تختل موازين الأعمال فيحقر أي معروف لا يدوي أثره بين الناس، وأن يصير من علامات تحقيق الذات المعاصرة عند غالب الناشئين مدى حظوتهم عند أحد والديهم أو كليهما فوق بقية الإخوة لدرجة التحاسد والتباغض بينهم، أو من علاماتها النجومية بين الأقران في مختلف السياقات، وتزايد عادات متابعيهم على وسائل التواصل الاجتماعي.

ولا عجب بالتالي أن يرقّ في النفوس معنى الدّين، ويضعف في الوجدان أثر العلم برقابة الله واطلاعه على الفرد في مختلف أحواله، فيكثر وقوع ما حذرنا منه المصطفى ﷺ من استسهال انتهاك محارم الله تعالى في الخلوة، مع التلبّس بلباس الالتزام في العلن! وهي ظاهرة قديمة جديدة، وقف عليها كذلك الرافعي في زمانه فقال:

«لقد رقى الدين في نساتنا ورجالنا، فهل كانت علامة ذلك إلا أنّ كلمة (حرام، وحلال) قد تحوّلت عند أكثرهم وأكثرهنّ إلى (لائق، وغير لائق)، ثم

عمادُ التربية الحسنة: علمٌ قويمٌ، وقدوةٌ حيَّةٌ، ومعاملةٌ رشيَّدةٌ، وهذه لا تُكتسب بالوراثة أو تهبط عفوًا دون بذل جهد من طرف الوالدين في تحقيق والديتهما، التي ينبغي أن تتجاوز مجرد إخراج الطفل لحيز الوجود وحفظ بقائه، إلى رعاية ذلك الوجود وتجويد عمرانه

ختامًا:

من أعظم المهام في هذا الوجود بعد النبوة والحكم مهمة «الوالدية» نسبة إلى الوالدين؛ فالنبوة دعوة إلى الله تعالى، والحكم إقامة لأمر الله تعالى، والوالدية تربية على مراد الله تعالى، ثم في الوالدية نبلٌ من وجهٍ ثانٍ: فالوالد يعطي عطاءه لمن لا يعلم بعدُ أيكونَ وفيًّا أم غدارًا، وهل يثمر فيه غرسه على ما تمنى أم يصير غير ذلك. وفي الوالدية نبلٌ من وجه ثالث: وهو أن الوالد لا يعطي ولده شيئًا أو أشياء معدودة كما يعطي المعلم العلم والطبيب الدواء مثلاً، بل يعطيه ما بقي من عمره هو بكل تفاصيله، ويبذل له من صميم نفسه وأنفاسه دون حساب.

ولعلَّه لذلك -ولغير ذلك- كان برّ الوالدين ثاني ما أمر الله تعالى به بعد الإيمان: ﴿وَقَصَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِياهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. ولا ريب أن الوالدية الصالحة أعظم نعمة يُنعم بها على عبد بعد نعمة الإسلام، لكلا طرفيها: الوالد والولد. وأصلحُ الوالدية ما يهبها الوالد لله تعالى على سبيل التعبد، ويقدمها لولده بدافع المحبة لقطعة ضوّعت له، لا ما يقدمها بدافع التشرط على قطعة أخذت منه وبغرض انتزاع المردود انتزاعًا من عبء أضيف عليه.

وإذا كانت النُوة الصالحة شكرًا للوالدين على برهما، فالوالدية الصالحة شكرٌ لله تعالى على هبته، ولذلك جعلها الله تعالى من العمل الذي لا ينقطع أثره لصاحبه: ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))^(١).

نزلت عند كثير من الشبان والفتيات إلى (مُعاقب عليه قانونًا، ومُباح قانونًا)، ثم انحطت آخرًا عند السواد والدهماء إلى (ممكّن، وغير ممكّن)^(١).

الخلاصة:

عمادُ التربية الحسنة: علمٌ قويمٌ، وقدوةٌ حيَّةٌ، ومعاملةٌ رشيَّدةٌ، وهذه لا تُكتسب بالوراثة أو تهبط عفوًا دون بذل جهد من طرف الوالدين في تحقيق والديتهما، التي ينبغي أن تتجاوز مجرد إخراج الطفل لحيز الوجود وحفظ بقائه، إلى رعاية ذلك الوجود وتجويد عمرانه؛ فحسّ الوالدية وإن كان فطرة يستدعيها السياق تلقائيًا، إلا أنه كغيره من مكونات الفطرة يحتاج لبصيرة العلم وتهذيب التزكية وصقل المران، لينثمر ذلك الحسّ على المدى منهجية رشيَّدة ووالدية مؤثرة، خاصة في ظلّ توسّع تحديات عصر اليوم وتداخل ثقافته وانهمار مغرباته، بما لم يعد يصلح معه نهج الإدارة الآلية القائمة على الأوامر والنواهي، وسلطوية إملاء الأفعال والمشاعر، وقصر الالتزام الديني الصوري على الخارج بدل بذره في الروح من الداخل.

«لقد رُقّ الدين في نساءنا ورجالنا، فهل كانت علامة ذلك إلا أنّ كلمة (حرام، وحلال) قد تحوّلت عند أكثرهم وأكثرهنّ إلى (لائق، وغير لائق)، ثم نزلت عند كثير من الشبان والفتيات إلى (مُعاقب عليه قانونًا، ومُباح قانونًا)، ثم انحطت آخرًا عند السواد والدهماء إلى (ممكّن، وغير ممكّن)»

مصطفى صادق الرافعي

ولا يظنّ الوالدان أنّ شخصيتهما تؤثر على أبنائهما المباشرين فحسب، بل هي تؤثر على جيل كامل بذرته أبنائهما، وإذا كان التسبب التربوي قد خرّج أجيالاً من العُقد النفسية والتشوّهات الفكرية المتحرّكة، فقد خرّج التشدّد التربوي أجيالاً غليظة الفهم والقلب. والوسط بينهما هو التربية العاملة والقدوة الهادية، التي تقوم على التدرّج بصبر ورسوخ، وتجمع بين اللين والحزم كلٌّ في موضعه، وتصدّق الاستعانة بالله تعالى ليبارك في الذرية ويوفّق والديها لمهمّة تعبيدها له على ما يحبّ ويرضى.

(١) وحي القلم، للرافعي (٢٩٠/١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).

العمران في القرآن مفهوماً ومقصداً

د. فاطمة الزهراء دوقيه (*)

عمران كل أمة ينبع من هويتها وثقافتها، ويميزها عن الأمم الأخرى، ومن أهم قضايا الأمة الإسلامية الحاضرة صياغة فقهها العمراني الحضاري المنبثق من دينها وتاريخها؛ لاستعادة عزها ونهضتها. وهذا المقال يكشف عن الخطوات المنهجية العلمية المتعلقة بالعمران ومفهومه، والكشف عن أسسه التي بينها القرآن وحددها.

ومفهوم التزكية متعلقاً بالرؤية للإنسان المستخلف في الأرض: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ فإن مفهوم العمران يتعلّق بالرؤية لوظيفته في الكون المستخلف فيه لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، بما هو عمران الأرض بحياة الإنسان، وعمران حياة الإنسان بالخير والصلاح.

مفهوم العمران في القرآن:

إن العمران الذي نتحدث عنه هو ذلك الوارد في قول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي ما يتعلّق بالجانب المادي من الحياة البشرية، وكلّ ما تعلقت به منافعهم ونظام معاشهم. ومعنى الاستعمار في الآية: «الإعمار، أي

تقديم:

لا تخفى حاجة أمّتنا الإسلامية الملحة إلى نهوضها الحضاري، لتخرج من حال تخلفها المزمّن وقصورها في مختلف الميادين؛ لأجل ذلك هي بحاجة إلى فقه عمراني يحملها على العمل والسعي لتحقيق العمران، واستثمار خيرات الأرض، وتسخير سنن الله وقوانينه في الحياة والأحياء، والأمر في ذلك رهين باتّباعها للهدى الربّاني، بما يمدّها به من الرؤى المعرفية السديدة لمختلف القضايا العمرانية والحضارية.

و«العمران» مفهوم قرآني أصيل، عليه يدور الخطاب القرآني في العديد من قضاياها ومسائله، فإذا كان مفهوم «التوحيد» متعلقاً بتصوّر الخالق سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]،

(*) دكتوراه في الدراسات الإسلامية، مجال الدرس القرآني والعمران البشري - المغرب.

« **والمكان:** فالعمران «هو الاستقرار في مكان محدد والتوطن فيه، والتخلي عن حياة التنقل في البادية، والرحيل من مكان إلى آخر، واللجوء إلى الفلاحة والزراعة، وتشبيد المساكن والقصور، واتخاذ المصانع لتوفير متطلبات الحياة المستقرة، وتطوير أسبابها وأدواتها»^(٦).

« **والزمن:** وهو أكثر ما استخدمت له؛ فالعمر والعمر: «اسم لمدة عمارة البدن بالحياة»^(٧)، يقول تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

«ولا شك أن مرور الزمن أمر مطلوب لإنجاز الأعمال وتنفيذ المهمات وتحقيق الأهداف؛ فمرور الزمن عنصر في نمو الفرد الإنساني وتحققه ببعض الخصائص، واستكمال بعض المتطلبات المادية والمعنوية، ومرور الزمن عنصر في تحقق المجتمع بمستوى معين من مستويات البناء والتشكل الحضاري»^(٨).

فهذه المعاني قد احتوتها آية الاستعمار في معناها: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ «وجعلكم عمارة فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام حياتكم»^(٩).

وهكذا فإننا يمكن أن نعرف عمارة الأرض وعمرانها من المنظور القرآني بأنها: الفعل الإنساني الشامل والمتكامل الذي يتمثل في شتى صور العمل وأنواعه من زرع وبناء وتشبيد وما إلى ذلك، وما يستتبعه، وما يترتب عليه، وما يعرض له من أحوال، نتيجة اجتماع الناس واستقرارهم وإقامتهم على هذه الأرض، وفق هدي الله ومنهجه^(١٠).

إنَّ العمران من مهامِّ الإنسان الكبرى
ضمن وظيفته الاستخلافية العامة: ﴿وَأَذِ
قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
[البقرة: ٣٠]

جعلكم عامرينها... ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأن ذلك يعدّ تعميراً للأرض، حتى سمّي الحرث عمارة لأنّ المقصود منه عمّر الأرض»^(١).

وهو يدخل في معاني الخلافة في الأرض، بل نجد من رادفهما من المفسرين وجعلهما بالمعنى نفسه: «استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون وتغرسون وترعون وتحراثون ما شئتم، وتنفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها»^(٢).

وعلى آية حال، فإنّ العمران من مهام الإنسان الكبرى ضمن وظيفته الاستخلافية العامة: ﴿وَأَذِ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ بمعنى أنه «الركن المكمل لعملية (الاستخلاف)، والقيمة الحضارية الكبرى في الإسلام التي توّطر حركة الاستثمار في الكون، والتعامل مع الأشياء وفق منهج الله في أمره ونهيه... فمهمة الخلافة تقتضي التعمير في الأرض تعميراً مادياً، بالمنشآت الصالحة، وبالصناعة والزراعة ومقتضياتهما، وتعميرها معنوياً بإقامة العدل وإشاعة الإحسان بين الناس»^(٣).

ومن البدهة أنه لكي يتحقق العمران بهذا المعنى لا بد أن يتم عبر اجتماع الناس وإقامتهم واستقرارهم في مكان وموطن، وتعاونهم على شؤونهم، وكذا عبر مساحة الزمن المتمثل في هذه الحياة الإنسانية والأعمار التي يتمتع بها الناس، وهاتان الدالتان مما تتضمنه مادة «عَمَرَ» التي استعملها القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة بصيغ مختلفة^(٤)، شاملة في معانيها ثلاثة أبعاد متداخلة^(٥):

« **العمل:** بمختلف صورته من غرس وزراعة وصناعة ومنشآت ومؤسسات كما تقدّم.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/١٠٨).

(٢) تفسير ابن سعدي، ص (٣٨٤).

(٣) قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، لمحمد عبد الفتاح الخطيب، ص (٩٩).

(٤) ومنها: عَمَّرُهَا، يُعْمَرُ، يُعْمَرُ، يُعْمَرُ، يُعْمَرُ، أَعْمَرْتُ، أَسْتَعْمَرُ، أَلْعَمُورُ، أَلْعَمْرُ، وَالْعُمْرَةُ، وَعِمَارَةٌ. يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، ص (٤٨٣-٤٨٣).

(٥) تراجع التفاصيل في منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، لفتحي ملكاوي، ص (١٢٨-١٤٢).

(٦) المرجع السابق، ص (١٣٨).

(٧) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص (٥٨٦).

(٨) منظومة القيم العليا، لفتحي ملكاوي، ص (١٣٠).

(٩) تفسير الطبري (١٢/٤٥٣).

(١٠) وينظر تعريف ابن خلدون للعمران، المقدمة، ص (٥٠).

صيغة الطلب دليل المقصدية:

خلق الله تعالى الإنسان لعبادته، فوضع له شريعة لتعبيد الحياة كلها بجميع فعالياتها ونشاطاتها لله عز وجل، بما في ذلك عمران الأرض وتحقيق التمكين عليها بما يحقق للناس الحياة الطيبة، ونيل مصالحهم ومنافعهم المعنوية منها والمادية^(١).

ففي الآية: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جاء الأمر واضحاً والطلب صريحاً بعمارة الأرض؛ فطلب العمارة بلفظ الاستعمار بمعنى «أمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه»^(٢). وقد روي عن السلف أن معنى «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا»: «أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار»^(٣)، ويذكر الكيا الهراسي أنه «يدل على وجوب عمارة الأرض، فإن الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى للوجوب»^(٤).

قال الأوسى: «أي وهو الذي جعلكم عمارها وسكانها، فالاستفعال بمعنى الإفعال، يقال: أَعْمَرْتُهُ الْأَرْضَ وَاسْتَعْمَرْتُهُ إِذَا جَعَلْتَهُ عَامِرَهَا، وفوّضت إليه عمارتها، وإلى هذا ذهب الراغب وكثير من المفسرين، وقال زيد بن أسلم: المعنى أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن، وحفر أنهار، وغرس أشجار وغير ذلك، فالسين للطلب، وإلى هذا ذهب الكيا، واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لهذا الطلب»^(٥).

ثم إنّه ذكر ما يلحظ في أقوال عموم المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ من استعمالهم لفظ «الجعل»، الذي من مدلولاته أن يكون المفعول مراداً لله تعالى ومقصداً^(٦).

فيظهر من هذا أنّ عمارة الأرض مقصد قرآني كبير، ما حدا بالأصفهاني إلى جعله المقصد الأول

من مقاصد خلق الإنسان بقوله: «والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء؛ أولها: عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره»^(٧)، ثم ذكر مقصدي العبادة والخلافة.

ومن العلماء المعاصرين الذين قرّروا بوضوح مقصدية عمران: العلامة «علال الفاسي» حيث عدّ المقصد العام للشريعة الإسلامية: «عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحتها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلّفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع»^(٨)، مستدلاً بقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، مضيفاً: «أنّ المقصود من استخلاف الإنسان في الأرض هو قيامه بما طوّق به من إصلاحها؛ والمراد بالإصلاح هنا: إصلاح أحوال الناس لا مجرد صلاح العقيدة؛ كما بيّن ذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١]، فاستعماركم أي جعلكم مكلفين بعمارة الأرض، وهذا الإصلاح هو الذي دعا إليه الرسل وظلّوا يعملون على تربية الناس عليه عن طريق التذكير بالفطرة وما جُبل عليه الإنسان بصفته إنساناً ذا عقل ولغة وتكليف»^(٩).

وبهذا فإنّ عمران واجب من الواجبات الشرعية، و«لا تدلّ قرينة على صرفه عن غيره، فهو واجب على المسلمين كافة كل حسب طاقته، وما يسر الله لهم من الأعمال، فمن قصر أو أهمل فهو آثم، لأنّه خالف ما أوجب الله عليه»^(١٠).

وهذا ما ذهب إليه سيد قطب حين تناول الخلافة بمعنى عمارة الأرض، بقوله: «إنّ التصور الإسلامي

(١) يراجع: قيم الإسلام الحضارية، ص (٩٩).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٤٨٩/١٢).

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ص (٦٦٣).

(٤) أحكام القرآن، للكيا الهراسي (٢٢٦/٢).

(٥) روح المعاني، للأوسى (٨٨/١٢).

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٢٨٨/٤)، وتفسير القرطبي (١٤٩/١١)، وتفسير ابن كثير (٣٣١/٤)، والتحرير والتنوير (١٠٨/١٢)، ومحاسن التأويل، للقاسمي، ص (٣٤٦١).

(٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، ص (٨٢).

(٨) مقاصد الشريعة ومكارمها، لعلال الفاسي، ص (٤٦-٤٥).

(٩) المرجع السابق، ص (٤٦).

(١٠) مفهوم التنمية بين الإسلام والفكر الوضعي، محمد الدسوقي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٥١، (ربيع الأول ١٤١٧هـ - يوليو/غشت ١٩٩٧م)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ص (٥٤).

ناحية أنه يُتقوى به على إقامة دين الله وطاعته؛ إذ لا بدّ من قيام نظام الدنيا، ليقوم في الأرض نظام الدين، ففي سياق تفسيره لدعاء إبراهيم -عليه السلام- لمكة وأهلها بالأمن وسعة الرزق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] يقول الرازي: «إن الدنيا إذا طُلبت لِيَتَقَوَّى بها على الدين كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرّغ أهله لطاعة الله تعالى، وإذا كان البلد على ضدّ ذلك كانوا على ضد ذلك»^(٤).

وهو المعنى الذي نستطيع أن نستشفه في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]، حيث يقرن تعالى بين الأمر بعبادته، وبين المنّ بنعمتي الأمن والمطمع، حيث لا يتأتى القيام بالعبادة على وجهها الصحيح إلا في ظلّ استتباب الأمن ووفرة العيش، ولذا نجد الغزالي مثلاً يقرّر في اقتصاده أن: «نظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصّل إليه إلا بصحة البدن»^(٥)، مستنتجاً: «إذن: نظام الدنيا شرط لنظام الدين»^(٦).

تهيئة الأسباب قصد العمران:

ما كان للإنسان أن يقوم بمهمته العمرانية في الأرض لولا أنّ الله تعالى هياً ويسّر له الأسباب، فلما خاطب سبحانه الناس لم يخبرهم أنه عمّر لهم الأرض، بل خلق لهم هذا الكون وسخّره، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، ثم أمرهم باستغلالها واستثمارها لعمارة الأرض والتمتع بخيراتها.

وتنقسم هذه الأسباب إلى نوعين: موضوعية تخصّ ما تزخر به الأرض والطبيعة عمومًا من إمكانات ومقدّرات، وذاتية تخصّ الإنسان ذاته في هيئته التي خلق عليها، وفيما زُود به من قدرات وملكات تدفعه إلى القيام بمهمته العمرانية.

أما النوع الأول: فالعبارة القرآنية التي يعبر بها هي: «التسخير»، كقوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]،

يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله، بإذن الله، وفق شرط الله، ومن ثمّ يجعل العمل المنتج المثمر وتوفير الرخاء باستخدام كلّ مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها -بل الخامات والموارد الكونية كذلك- هو الوفاء بوظيفة الخلافة، ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة -وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف- طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة^(١).

وبالتالي، لا يخرج التكليف بعمارة الأرض عن المقصدية القرآنية، وإلا يحصل نقيضه وهو الخراب، كما هو تعريف العمارة^(٢)، وفي ذلك فساد لا شك، ومنافٍ لمقصود الشارع في صلاح أحوال الناس، والقيام بمصالح الخلق، وحفظها، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

وعليه، يعتبر تحقيق العمران مقصدًا ضروريًا تتعلّق به مصالح الناس ومنافعهم في الحياة، و«ليس هامشيًا أو بعيدًا عن مراد الشرع؛ بل جاء في أعظم مقاصد الدين، ولا ينبغي للمكلف أن يكون مقصوده مخالفًا لمقصد الشارع، وهذا يقتضي أنّ العمل والبناء والزراعة والصناعة وصنوف التعمير هي من مقاصد الشرع الحنيف المطلوبة من عموم المسلمين»^(٣).

«إنّ التصور الإسلامي يجعل وظيفة الإنسان في الأرض هي الخلافة عن الله، بإذن الله، وفق شرط الله، ومن ثمّ يجعل العمل المنتج المثمر وتوفير الرخاء باستخدام كلّ مقدرات الأرض وخاماتها ومواردها -بل الخامات والموارد الكونية كذلك- هو الوفاء بوظيفة الخلافة، ويعتبر قيام الإنسان بهذه الوظيفة -وفق منهج الله وشريعته حسب شرط الاستخلاف- طاعة لله ينال عليها العبد ثواب الآخرة»
سيد قطب

وإذا كان العمران مقصدًا شرعيًا من ناحية تعلّق مصالح الخلق ومنافعهم به، فهو مقصد قرآني من

(١) في لظلال القرآن، لسيد قطب (١/٩٣٢).

(٢) المفردات، للأصفهاني، ص (٥٨٦).

(٣) الوعي الحضاري، للقطاني، ص (٨٦).

(٤) تفسير الرازي (٤/٥٩).

(٥) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص (١٧٠).

(٦) المرجع السابق، ص (١٧٠) بتصرف.

أهم القدرات
التي أودعها الله في
الإنسان لغرض
عمارة الأرض

حب الاجتماع
الذي جُبل عليه
الإنسان

الإمكانات
الجسدية واللغوية
المناسبة

الطموح الذي
أودعه الله تعالى في
البشر

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].
وغير ذلك من التعبيرات التي تفيد باعتماد تحقق
العمران على تهيؤ الأسباب الإلهية المبتوثة في
الطبيعة والكون.

ومن صور تسخير الله تعالى للكون وتهيئة
الأسباب^(٢): بعض ما يتعلّق بتهيئة الأرض للعمارة،
حيث يخبر تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾
[الملك: ١٥]؛ أي جعلها صالحة لاستقبال ما يمكن
أن يحدثه الإنسان من العمارة، وميسرة لما خلق
له؛ كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾
[النبا: ٦]، أي «ممهدة مهياة لكم ولمصالحكم، من
الحروث والمسكن والسبل»^(٣).

ومن تذليلها أن ألقى فيها الجبال والأنهار:
﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فـ«الجبال العظام
لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من

والتسخير من الألفاظ الدالة على معنى تهيئة كلّ
الأسباب، وتطويع جميع المسخّرات لتكون عوناً على
عمارة الأرض وحسن الإقامة فيها، وقد كثر ذكره
قرآنيًا كـ «شاحذٍ رئيسٍ نحو اكتشاف نواميسها
ومعرفة مجالات التسخير منها، وكيفية خدمة
الإنسان بها. وعقلٌ يخاطب بهذا الأمر الدقيق البالغ
في تحديد مهامه الصالحة، وعدم تضييع وقته في
مجالات لا تفيد؛ ينبغي أن يتفقت ذهنه بالمخترعات
والمكتشفات الحياتية التي تسهل عليه البناء،
والحصول على الغذاء، وبلوغ السماء، وتوفير
الرخاء، وقطع المفاوز، وتيسير المصاعب، وتقليل
المخاوف، وغيرها مما يشغل بني الإنسان ويرهقه
في حياته. هذا الخطاب الذي حاول أسلاف الأمة أن
يجيبوا عنه من خلال حركة الكشوف والمخترعات
بعد القرن الهجري الثاني»^(١).

كما يستخدم تعبير: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ بالمعنى
نفسه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وتعبير الرزق كقوله:

(١) الوعي الحضاري، ص (٩٠).

(٢) ينظر: مسارات العمران من خلال القرآن، زيد أبو شعراء، مجلة حراء، عدد ١٨، السنة ٥، ص (٩).

(٣) تفسير السعدي، ص (٩٠٦).

الأصح والأكمل؛ فجانبه الروحي يمكّنه من السمو والعلوّ نحو الأفق الإلهي ليقتبس منه مضمون الخلافة أمرًا ونهيًا على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمّل، وجانبه المادي الأرضي يمكّنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها لعمارتها^(٥).

حرت الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطّرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم^(١).

وأُنزل الحديد، ليكون وسيلة من أهم وسائل بناء العمران وحمائته: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فيخبر عز وجل عن خلق الحديد وفوائده من بأس شديد متعلّق بصناعة القوة المتمثلة في السلاح بمختلف أنواعه، ومن منافع ذات الصلة بمعاش الناس من مختلف الآلات والأدوات التي يستعان بها في الحرث والزرع والحياكة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك^(٢).

»
ما كان للإنسان أن يقوم بمهمته العمرانية في الأرض لولا أن الله تعالى هياً ويسر له الأسباب، فلما خاطب سبحانه الناس لم يخبرهم أنه عمّر لهم الأرض، بل خلق لهم هذا الكون وسخره، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، ثم أمرهم باستغلالها واستثمارها لعمارة الأرض والتمتع بخيراتها

وفيما يلي نذكر إشاراتٍ فيما يتعلّق بجانب من هذا القوام وشيئاً من تلك الهيئة، وكذا مما أودعه الله في الإنسان من قدرات؛ قصد إبراز وجه خدمته للبناء العمراني:

١. ما يتعلّق ببنائه الجسدية وبعض المظاهر الرفيعة فيها: أجمل الأصفهاني القول فيها في جزء من حديثه عن فضل الإنسان قائلاً: «وأما فضله في جسمه: فباليد العاملة، واللسان الناطق، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كلّ ما أوجد في هذا العالم، وقد نبّه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]^(١).

إنّ هذه القامة المنتصبة إلى الأعلى، وذلك التركيز لوسائل الإدراك في الطرف الفوقي من الإنسان، لهو الوضع المناسب الذي هياه الله تعالى «للإشراف على الظرف المكاني المحيط بالإنسان على أبعاد كبيرة؛ بحيث تكون له القيوميّة على تلك الأبعاد في مختلف الجهات، سواء في الاحتراس من الغوائل، أو في رعاية المنافع، أو في الرصد والتطلّع لإنشاء المصالح ومراقبتها واستثمارها، فأين الإنسان في هذا التقويم الرفيع من البهيمة التي خلقت مكبّة

وهكذا، فقد هياً الله الكون بما فيه وسخره ليوظفه الإنسان في عمارة الأرض، إنشاءً وحفظاً وتنميةً وتطويراً.

وأما النوع الثاني: فيخصّ الإنسان ذاته، فقد جهّز سبحانه الإنسان ببنية وقوام، واستعدادات وقدرات تمكّنه من هذا الاستخلاف، ولذلك جاء ارتباط خلق الإنسان من الأرض بأمره بعمارته في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ إشارةً إلى ما بينهما من التناسب والتوافق، والوحدة والتناسق «بين النواميس التي تحكم الأرض - وتحكم الكون كلّ - والناواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطّم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!»^(٣)، وإشارةً إلى أنّ منافعها من الأرض تناسب نعمة إنشائه من الأرض، فلاجل منافعها في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنّها من الأرض التي أنشئ منها، ولذلك عطف عليه: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(٤).

لقد جعل الله تعالى الإنسان على هيئة معيّنة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وما جعل على هذا القوام الأحسن إلا ليساعده على إنشاء العمران في الأرض بيسر وتمكّن، وعلى الوجه

(١) تفسير السعدي، ص (٤٣٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٨/٨).

(٣) في ظلال القرآن (٨٩/١).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٠٨/١٢).

(٥) قيمة الإنسان، لعبد المجيد النجار، ص (١٩).

(٦) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص (٧٨).

من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه، وهداه إلى التماسه وطلبه؛ قال تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].^(٤)

٣. كما جُبل الإنسان على حبِّ الاجتماع مع الناس والأنس بهم؛ إذ هو مدني بالطبع، لا بد له من الاجتماع مع بني جنسه، من هنا جاءت تسميته الإنسان؛ إذ من طبيعته الأُنس والاجتماع مع نظائره، وقد تحدّث الماوردي عن هذه المسألة، بقوله: «الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانتة صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة في جوهره، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، يعني عن الصبر عما هو إليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز»^(٥). وأكّد ابن خلدون هذا المعنى بقوله: «لا تمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه؛ وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه»^(٦).

هذا، وتتعدّد أسباب العمران الكامنة في الإنسان وتتشعب، فلا تسع إلا هذه الإشارات، وتلك الأجزاء لجانب واحد فقط، فخلق الله تعالى وإبداعه أعظم من أن تحصره كلمات وفقرات، بل ومؤلفات.

خاتمة:

عمارة الأرض من المفاهيم المركزية في الإسلام، ومقصد من مقاصده العليا، وقد هيأ تعالى للإنسان الأسباب المساعدة على العمران بشقيها الكوني والذاتي اللازمة لذلك، فما عليه إلا أن يتعرّف على سنن الله في الكون، ويحسن استغلال موارده، ويخلص النية لله تعالى في هذا الإعمار، ويقصد به نفع البشرية ورفعته، فحينذاك سيكون قد قام بوظيفة الاستخلاف في الأرض خير قيام.

على وجهها، فلا يكون إشرافها إلا على المساحة القليلة من المكان والسمت الواحد من الجهات»^(١).

وأما أعضاء الجسم فتتشكّل بحقّ «معدات عجيبة من الأعضاء والمفاصل تمكّنه من ردّ العوادي على جسمه، وتوجيه الموجودات من حوله لما فيه منفعة. وبنفس الأهمية يقال عن سائر أجهزة هذا الجسم الذي ركّب على نحو مصمّم للحياة في هذا العالم؛ فالحواس -نوافذ الإنسان للتعامل مع عالم المحسوسات- جاءت مقيسة ومصمّمة وفق المسرح المهيأ لعيشه وأداء عمرانه، وهكذا قضت حكمة الله تعالى أن يهيئ الإنسان في ذاته على حال وتركيب متناسبين مع ما ركّب عليه الكون في أبعاده وقوانينه وأحجامه بما يتلاءم ومهمّته العمرانية في الأرض، وما يستجيب لقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًا فعلاً... ويبدو ذلك التسخير الكوني للإنسان فيما ركّب عليه الكون من قوانين كمية وكيفية تحكم عناصره، تناسب تمامًا الكيان الإنساني في وجوده ابتداء»^(٢).

٢. ومما أودعه الله تعالى في الإنسان:

«الطموح»؛ إذ خلق فيه «حاجات وشهوات تدفعه إلى إشباعها وتلبيتها؛ فينتج عن السعي لإشباعها إعمار الأرض، وخلق فيه ذوقاً وإحساساً بالجمال يتمكن به أن يضفي مسحة من الحسن والبهاء على عمرانه، وخلق فيه عقلاً يقدر به على اكتشاف الكون وقوانين الحياة واكتساب العلم الذي بموجبه يستطيع التحرك في أرجاء السماوات وتسخير ما في الكون لعمارة الأرض: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، وخلق فيه قدرة بدنية يستطيع بها تحمل أتعاب الإعمار ومشاق تحقيق المصالح»^(٣).

وهذا يعدّ من خواصّ الإنسان التي يتميز بها عن سائر الحيوانات كما ذكر ابن خلدون وقال: «ومنها السعي في المعاش والاعتماد في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه، لما جعل الله فيه

(١) قيمة الإنسان، ص (٢٠).

(٢) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، ص (٤٢).

(٣) مسارات العمران من خلال القرآن، لزيد بو شعراء، ص (٩-١٠).

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص (٥٥-٥٦).

(٥) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص (١٤٣-١٤٤).

(٦) مقدمة ابن خلدون، ص (٤٧٨).



دعوة

إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

أ. أحمد أرسلان (*)

يسلط المقال الضوء على تجربة الصحابة الفريدة بعد أحد.. لحظة تاريخية مثقلة بالجراح، لكن مشحونة بالإيمان، فور خروجهم من معركة أحد وهم ما بين مُصاب وجريح؛ ناداهم النبي ﷺ لمعركة أخرى في صبيحة اليوم التالي لمعركة أحد.. فما تردوا، بل بادروا بطاعة نادرة رغم الألم، نحاول هنا تلمس طريقهم، لعل هذا يساعدنا على أن نهض كما نهضوا، بثقة ويقين وتوكل.

كيف يكون تأهب الكافرين واجتماعهم على النبي ﷺ وصحابته سبباً في زيادة التصديق بالله وبوعده؟

فالمبتدأ إلى الذهن ابتداء أنه في اللحظات العصبية المضطربة التي تتزلزل فيها القلوب، ويتصاعد جهد الأعداء، وتضيق بالمؤمنين السبل، فإن هذا قد يكون نتيجته تزعزع للإيمان وتنازل عن الثواب.

لكن الآية الكريمة هنا تضعنا في صورة مغايرة تماماً؛ فرسول الله ﷺ وصحبه الكرام خرجوا من معركة أحد وقد استشهد منهم العشرات ومنهم كبار جيش محمد ﷺ، حتى إن الرسول ﷺ جرح وسال دمه الشريف على وجهه، واضطر أن يلجأ إلى شعب من شعاب جبل أحد وحوله ثلة قليلة من

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَجْعَلُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

مع أحداث سوريا الأخيرة بعد التحرير، وتضافر جهود أعداء الداخل والخارج على إفشال هذه الأيام التاريخية للشعب السوري في بناء دولته ونهضته عقب حرب تحرير عظيمة؛ تذكرت هذه الآية، لاسترجاع معاني التوكل على الله، لكن استوقفني فيها سؤال:

(*) مدون، ومتخصص في صناعة المحتوى والإنتاج الإعلامي.

عدو الله، ها هو ذا رسول الله ﷺ وأبو بكر، وإنّا أحياء ولك منا يوم سوء.

فخابت آمال أبي سفيان في تحقيق نصر كبير فصرخ بأعلى صوته: اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: (أجيبوه) قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل)، قال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: (أجيبوه)، قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: (قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم)^(٤).

ثم قفل أبو سفيان عائداً بجيشه إلى مكة، وعاد النبي ﷺ بجيشه إلى المدينة المنورة. وفي صبيحة اليوم الثاني من غزوة أحد قدم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ، وكان من عادة النبي ﷺ في الحرب أن يستثمر الأخبار التي تصل من هنا وهناك، بل كان يرسل العيون لتتبع حركة الأعداء، فسأل النبي ﷺ الرجل عن أبي سفيان ومن معه، فقال: نازلتهم فسمعتهم يتلاومون، يقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم، ولم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم.

فعرف النبي ﷺ أن أبا سفيان ومن معه قد يعودون إلى المدينة، فبادر النبي ﷺ وأمر من يناهض بأصحابه أن ينطلقوا للمعركة واشترط عليهم ألا يخرج معه إلا من شهد القتال في أحد^(٥).

وكان ممن خرج في أحد رجلان من بني عبد الأشهل، قد رجعا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، ما طاب لهما أن يتخلفا عن غزوة مع رسول الله ﷺ، وليس لهما دابة يركبانها، وكان أحدهما أيسر جرحاً من الآخر، فكان يحمل أخاه تارة ويمشي بجانبه تارة، حتى لحقا بالمسلمين^(٦).

وكان جابر بن عبد الله ؓ قد تخلف عن غزوة أحد بسبب أمر والده برعاية أخواته، وقد استشهد

الصحابه للدفاع عنه، وبعد هذا بيوم واحد فقط يأتيه الخبر أن جيش قريش ندم على رجوعه عن المدينة قبل استئصال جيش المسلمين وأنه عائذ لقتالهم، فيكون أول ما يقوله نبينا ﷺ وصحابته بثبات وعزيمة أن (حسبنا الله ونعم الوكيل)^(١)، لكن السؤال الذي طرحناه في البداية جوابه في الآية نفسها ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، نعم هذا الثبات والاكتفاء بالله سبحانه وتعالى يأتي من تلك المعاني التي ارتقت في القلب حتى أثمرت ثباتاً وعزيمة. وحتى نخرج بدروس أكثر تفصيلاً، دعونا نتأمل المشهد بشكل أدق، دعونا نرجع إلى اللحظات الأخيرة من غزوة أحد، هناك في شعب من شعاب جبل أحد شمال المدينة المنورة، حيث النبي ﷺ قد كسرت رباعيته^(٢) وشج وجهه والدم يسيل على وجهه الشريف وهو يمسح الدم ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله)^(٣)، وقد التفت حوله صحبه رضوان الله عليهم، وهم يتأملون جثامين الشهداء موزعة في ساحة المعركة، وقد اعتصر قلبهم مما حدث من بعضهم من معصية أوامر الرسول، وفي تلك اللحظات يأتي صوت من الطرف المقابل:

أفيكم محمد؟

فيقول لهم رسول الله ﷺ: (لا تجيبوه)،

أعادها صاحب الصوت ثلاثاً فلم يجبه أحد،

فيقول: أفيكم ابن أبي قحافة؟

أعادها ثلاثاً فلم يجبه أحد،

ثم قال: أفيكم عمر بن الخطاب؟

أعادها ثلاثاً فلم يجبه أحد،

وهنا قال صاحب الصوت (أبو سفيان بن حرب ؓ) وهو يومئذ قائد جيش المشركين: أما هؤلاء فقد كُفيتموهم، فلم يملك عمر ؓ نفسه وقال: كذبت يا

(١) «حسبي الله ونعم الوكيل» من أعظم الأدعية الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة. ويناسب هذا الدعاء كل موقف يصيب المسلم فيه هم أو فزع أو خوف، وكذلك كل ظرف شدة أو كرب أو مصيبة، فيكون لسان حاله ومقاله الالتجاء إلى الله، والاكتفاء بحمايته وجناحه العظيم عن الخلق أجمعين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧).

(٢) السنن بين الثانية والثالثة والتاب.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩١).

(٤) ينظر: صحيح البخاري (٣٠٣٩).

(٥) البداية والنهاية (٤٥٤/٥).

(٦) البداية والنهاية (٤٥٥/٥-٤٥٦).



حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر،
قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهد من الأصوات راحلتي

إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

تردى بأسد كرام لا تنابله

عند اللقاء ولا ميل معازيل

فظلّت عدوّاً أظن الأرض مائلةً

لما سمّوا برئيس غير مخذول

فقلت: ويل ابن حرب من لقائكم

إذا تغطمط البطحاء بالجيل

إني نذير لأهل البسّل ضاحية

لكل ذي إربة منهم ومعقول

من جيش أحمد لا وخش تنابله

وليس يوصف ما أنذرت بالقييل^(١)

وحينها انهارت عزائم المشركين، وأصابتهم
الذلة والمهانة؛ قرّروا العودة إلى مكة، وحاول أبو
سفيان أن يغطّي انسحابه، فانتهاز فرصة
مرور قافلة متوجّهة إلى المدينة، وطلب منهم
أن ينقلوا رسالة إلى المسلمين بأنهم قد جمعوا

أبوه في معركة أحد، وشقّ عليه أن تفوته الفرصة
مرّة أخرى، فانطلق إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في
الخروج معهم، فأذن له.

توجه نبي الله ﷺ بجيشه الجريح بدناً القوي
إيماناً وعزيمة على ألا يعود لمخالفة أمر النبي ﷺ
إلى حمراء الأسد، جنوب غرب المدينة المنورة، وفي
الطريق قابل معبد بن أبي معبد الخزاعي فعزّى
النبي ﷺ بمصابه في أصحابه، وأعلن دخوله في
الإسلام، ورأى النبي ﷺ في إسلامه فرصة ذهبية
يمكن استغلالها في إرهاب قريش وتخويفها، فطلب
منه إخفاء إسلامه وتخذيّل قريش عن الرجوع.

فاتجه معبد ﷺ نحو أبي سفيان، فلما رآه
قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في
أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون
عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه
في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق
عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك، ما تقول؟
قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل،
قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل
شأفتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (١٠٣/٢).

مدار النصر الحقيقي هو ما في القلوب من إيمان وتوكل، والنصر يبدأ من الإيمان واليقين، ومن إعداد القوة: إعداد القلوب، ومن أولويات البناء: تعزيز الإيمان

أولاً: التوبة وسرعة الاستجابة وعدم تكرار أخطاء الماضي:

رغم الجراح والتعب، استجاب الصحابة فوراً صبيحة اليوم الثاني لغزوة أحد لأمر النبي ﷺ بالخروج لملاحقة المشركين، بل قدموا نماذج بطولية في ذلك، فهذا جريح يحمل أخاه الجريح، وذلك استشهد أبوه أمس ولم يستطيع الخروج فيبادر ليعوّض ويستأذن رسول الله ﷺ للخروج معه في هذه الغزوة مع أن الأمر جاء فقط لمن شارك في أحد.

كان الصحابة في غزوة حمراء الأسد في تحاملهم على جراحهم ومبادرتهم وطاعتهم لنبيهم ﷺ، وفي إعقابهم الخطأ بالتصحيح مباشرة، وبالتوكل على الله سبحانه وتعالى؛ يتركون درساً لمن بعدهم في الهمة والمبادرة والتوبة والطاعة لله ورسوله، وبالتوكل على الله؛ فأتأبهم الله سبحانه وتعالى زيادة في الإيمان وأنعم عليهم بأن لم يمسهم سوء وعادوا دون قتال.

ثانياً: التوكل على الله والاكتماء به يورث زيادة في الإيمان وحفظاً من الرحمن:

تحزب أعداء الدين على المسلمين قدر من أقدار الله ليمتحن الله عباده في توكلهم عليه، فالاكتماء بالله يورث زيادة في الإيمان وحفظاً من الله، والإيمان (مع الخطأ) محرك نحو التصحيح والثبات على الحق، والكفر (مع النصر) محرك نحو الجبن والفشل، فالنبي ﷺ وصحابته مع ما فيهم من جراح إلا أن الإيمان كان محركهم نحو الثبات والانتصار، فيما أبو سفيان ومن معه عادوا من أحد بروح المنتصر ومع ذلك أخافتهم أخبار ملاحقة محمد ﷺ لهم فجنبوا عن المواجهة وعادوا أدراجهم خائبين.

جنودهم وتهيؤوا لقتال النبي ﷺ وأنهم قادمون باتجاههم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) (١).

ولم يحدث بين الفريقين قتال، لكن المسلمين استطاعوا أن يأسروا رجلاً يُقال له أبو عزة الجُمحي، وكان شاعراً أسره المسلمون يوم بدر، ثم أطلقه الرسول ﷺ بغير فداء؛ رحمة ببناته، واشترط عليه ألا يقف ضد المسلمين، فلم يحترم الرجل العهد، وقاتل مع المشركين في أحد، فلما وقف بين يدي النبي ﷺ رجاه أن يعفو عنه، لكن النبي ﷺ أمر بقتله، وقال كلمته التي صارت مثلاً: (لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) (٢).

يا الله.. ما أجمل اللوحات التربوية في السيرة النبوية، كيف كان النصر أولاً في أحد، وكانت الهزيمة ثانياً فيها بعد أن خالف بعض الرماة وأمر النبي ﷺ، ثم كان الانتصار الكبير بعدهما، انتصار المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة، واستقرار المشاعر، وتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف.

في هذه الرحلة بين غزوتين عرف الصحابة -وقبل ذلك أيضاً- تكاليف الإيمان، وتكاليف الدعوة إليه، والتزام الطاعة والاتباع، والتوكل على الله وحده (٣).

حدث ما حدث في أحد بتدبير الله العلي القدير، تدبيراً كله خير لهم، لينالوا هذه العبر والتربية، ولنا من بعدهم لتأمل في هذه التجارب والحقائق، ومن هذا الباب نخرج بعدد من الدروس لنستصحبها معنا في طريق الإصلاح في بلدنا سوريا:

المتبادر إلى الذهن ابتداءً أنه في اللحظات العصبية المضطربة التي تتزلزل فيها القلوب، ويتصاعد جهد الأعداء، وتضيق بالمؤمنين السبل، فإن هذا قد يكون نتيجة لتزعزع الإيمان، والتنازل عن الثوابت

(١) تفسير الطبري (٤٠٩/٧).

(٢) الحديث صحيح متفق عليه: البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨)، أما سبب وروده فقد ذكرها أهل السيرة بإسناد ضعيف.

(٣) بتصرف واختصار من: في ظلال القرآن (٤٥٧/١).

الأخبار إلى أداة تأثير وتغيير وتشكيل رؤى وهويات وسيطرة؛ وهذا يدعونا إلى العناية بهذا الجانب توعياً وتثقيفاً واستثماراً في التربية والدعوة، وفي إعادة تصحيح الرؤى والتصورات، وفي العلاقة مع الآخرين.

خامساً: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين:

حديث نبوي عظيم أصبح مثلاً، وقد رأينا تطبيقها فيما رُوي من قصة قتل النبي ﷺ لأبي عزة الجمحي الذي نكث العهد ووقف في صف العدو مرتين، وكم من ناكث للعهد خائن يستحق أن يغلق عليه جحره.

وفي الختام:

ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أحوجنا لاستصحاب دروس التاريخ فيما نصنعه من تاريخ، فالخطأ وارد، لكن التصحيح واجب، والضعف موجود لكن العمل على تجاوزه والسعي نحو القوة مطلوب، والإيمان وقود الثبات، والتوكل على الله طريق الخلاص، والإعداد الحقيقي هو إعداد القلوب.

في العصر الحديث صار لكل دولة آلة إعلامية ضخمة، وانتقل دور الإعلام من أداة لتوصيل الأخبار إلى أداة تأثير وتغيير وتشكيل رؤى وهويات وسيطرة، وهذا يدعونا إلى العناية بهذا الجانب توعياً وتثقيفاً واستثماراً في التربية والدعوة، وفي إعادة تصحيح الرؤى والتصورات، وفي العلاقة مع الآخرين

الدرس الذي نتعلمه من غزوة حمراء الأسد: أن إظهار قوة المسلمين وهيباتهم مطلوب شرعاً، حتى في أوقات الضعف

ثالثاً: إظهار قوة المسلمين ورفع الروح المعنوية وإرهاب العدو:

حرص النبي ﷺ على إظهار قوة المسلمين وهيباتهم، حيث لم يدعُ إلى الخروج معه إلى غزوة حمراء الأسد إلا من شارك في معركة أحد، ليظهر للمشركين أن المسلمين مع ما حدث لهم في أحد إلا أنهم ما زالوا أقوياء وقادرين على التحرك السريع، بل والمبادرة حتى واللاحق بجيش المشركين.

ونرى هذا يتكرر في السيرة النبوية، ففي عمرة القضاء التي كانت بعد عام من صلح الحديبية، عندما طاف النبي ﷺ وصحابته حول الكعبة وصله أن قریش شممت بهم وقالت: «يقدم عليكم وفد وهنهم حمى يثرب»، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا^(١)، حتى قال بعض المشركين لبعض: «أهؤلاء أنهكتهم حمى يثرب؟».

كما أن مبادرة النبي ﷺ مباشرة وتأكيده على أن يخرج معه فقط من شاركه في معركة أحد فيه علاج نبوي للجراح المعنوية التي أصابت المسلمين في غزوة أحد، وفرصة ثانية للتعويض عما حدث في أحد، وقد رأينا كيف كان هذا سبباً في اشتداد عزيمة المسلمين واتكالهم على الله.

رابعاً: دور الدعاية في الحرب:

استثمر النبي ﷺ في الحرب النفسية والدعاية، وقد رأينا كيف أنه طلب من معبد الخزاعي تخذيل المشركين، وفي المقابل سعى أبو سفيان لتخويف المسلمين عبر بعض القبائل بأنه عائد إلى المدينة ليكمل ما بدأه، والمتأمل في هذا يعرف ما للإعلام من دور في التأثير على المعنويات في الحروب وفي مواجهة الأعداء.

وفي زماننا هذا انتقل دور الدعاية الإعلامية من أخبار للتضليل، أو التوجيه، أو التخويف، أو الحث، إلى أن صار الإعلام فاعلاً سياسياً واقتصادياً، بل أصبح الإعلام سلاحاً بحد ذاته!

في العصر الحديث صار لكل دولة آلة إعلامية ضخمة، وانتقل دور الإعلام من أداة لتوصيل

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥٦)، والرمّل: هو مقارنة الخط مع إسراع المشي.



قراءة في كتاب: «فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم»، لعلي الصلابي

أ. محمود كريم^(*)

يعرض الكتاب موضوعاً من أشد الموضوعات التي تحتاجها الأمة اليوم، ألا وهو «فقه النصر والتمكين»، وما يميز هذا الكتاب المنهج الذي اتبعه الكاتب في العرض، من خلال التأسيس والتفصيل، والجمع بين الماضي والحاضر، ثم الربط بين الأسباب المادية والأسباب المعنوية، والمزاوجة بين المفاهيم النظرية والخطوات والنماذج التطبيقية على أرض الواقع، لذلك جاء الطرح متوازناً؛ بعيداً عن التنظير المثالي، أو الإغراق في التفاؤل.

تعريف بالمؤلف:

علي محمد الصلابي، ولد في مدينة بنغازي في ليبيا عام (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م).

حصل على الإجازة الجامعية من كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة المدينة المنورة، ودرجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة أم درمان بالسودان، قسم التفسير وعلوم القرآن.

تعريف بالكتاب:

يتناول الكتاب موضوع فقه النصر والتمكين، وأهميته ودوره الجوهرية في حياة الأمة الإسلامية، حيث يناقش بالتفصيل هذا المفهوم من منظور إسلامي، ويعرض أنواعه، ويشرح أسبابه وشروطه، ثم يستعرض مراحل النصر والتمكين، وأهداف كل مرحلة. يقع الكتاب في ٥٣٤ صفحة، وقد صدر عن دار المعرفة في بيروت لبنان عام ٢٠١٤م.

(*) خريج جامعة حلب، كاتب وباحث.

٢. **أصحاب الأخدود:** إن قصة الغلام مع الملك الكافر من أوضح القصص في تمكين الله تعالى للدعاة في تبليغ رسالتهم وأداء أمانتهم. في حساب الأرض تبدو خاتمة القصة أليمة أسيفة، ولكن القرآن يُعلم المؤمنين شيئاً آخر؛ وهو أن الحياة وسائر ما يلبسها من لذائذ وآلام ومتاع ليست هي القيمة الكبرى في الميزان التي تقرر حساب الربح والخسارة، إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، والمتأمل في قصة الغلام يجد أنه انتصر بعقيدته ومنهجه، وكذلك الراهب ثبت وزهقت روحه من أجل أن تبقى عقيدته، أما جليس الملك (الأعمى) فقد انتصر مرتين: الأولى عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما فيها من عزّ وجاه، والثانية عندما تخلى عن حياته مقابل العقيدة.

٣. **تمكين الله لرسوله ﷺ لتبليغ الرسالة في مكة:** تعرض قصة دعوة النبي ﷺ منذ الصيحة الأولى في مكة إلى أن رجع إليها فاتحاً، صورة من أوضح الصور في تمكين الله لعباده، رغم الصد والإيذاء الذي تعرض له وأصحابه من قبل المشركين، وهذا ديدن المكذبين في كل زمان ومكان.

إن النبي ﷺ في طور المرحلة المكية قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة خير قيام، اهتم فيها ببناء الفرد المسلم الذي يحمل تكاليف الدعوة ويضحى من أجلها، وعلى هذا النهج سار الكثير من الدعاة من أمته على مر العصور، كالإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والعزّ بن عبد السلام، وغيرهم.

تعرض قصة دعوة النبي ﷺ منذ الصيحة الأولى في مكة إلى أن رجع إليها فاتحاً، صورة من أوضح الصور في تمكين الله لعباده، رغم الصد والإيذاء الذي تعرض له وأصحابه من قبل المشركين، وهذا ديدن المكذبين في كل زمان ومكان

الفصل الثاني: هلاك الكفار ونجاة المؤمنين أو نصرهم في المعارك:

يعرض لنا القرآن الكريم أربعة نماذج: نوح وموسى وطالوت والنبي ﷺ.

صدرت له مؤلفات كثيرة؛ منها: (السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا، الوسطية في القرآن الكريم).

عرض الكتاب:

يبدأ المؤلف كتابه بتمهيد يوضح فيه معنى الكلمات الثلاث المُشكّلة لعنوان الكتاب (الفقه - التمكين - القرآن)، حيث يتناول معاني هذه الكلمات في اللغة والاصطلاح، وتطور معانيها عبر التاريخ، ثم ينتقل إلى عرض الكتاب الذي يتكون من ثلاثة أبواب:

- « الباب الأول: أنواع التمكين في القرآن الكريم.
- « الباب الثاني: شروط التمكين وأسبابه.
- « الباب الثالث: مراحل التمكين وأهدافه.

ويتوزع كل باب من الأبواب الثلاثة على عدة فصول، تندرج تحتها أفكار الباب، وتنسجم فيما بينها لتوضح المعنى المراد.

الباب الأول: أنواع التمكين في القرآن الكريم:

يبدأ الكاتب بالتأكيد على نقطة جوهرية يغفل عنها الكثير من الناس، حيث يقصرون معنى النصر على صورة معيّنة معهودة لديهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر في الحقيقة شتى، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة، فإبراهيم عليه السلام وهو يُلقى في النار، ويحيى عليه السلام وهو يُنشر بالمنشار، وأصحاب الأخدود، هل كانوا في موقف نصر أم هزيمة؟ ما من شك - في منطق العقيدة - أنهم كانوا في قمة النصر.

إن النصر والتمكين للمؤمنين له صور متنوعة؛ من أهمها: تبليغ الرسالة، وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة.

الفصل الأول: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة:

إن من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم: تمكين الله تعالى للدعاة بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ثلاثة نماذج منها:

١. **أصحاب القرية:** تعرض القصة نموذجاً لقرية لم يستجب أهلها لدعوة المرسلين، ومضوا في كفرهم وعنادهم، بل هددوا المرسلين بالرجم والعذاب الأليم. ولكن رغم ذلك فإن المرسلين نصروا نصراً مؤزراً، والمتأمل للآيات يتضح له ذلك بشكل جلي.

• أولاً/ أدلة المانعين المشاركة في الحكم، من أهمها:

١. النصوص الحاكمة على مَنْ لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق. كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

٢. أن الحاكمة يجب أن تكون لله وحده. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].

٣. نهي المؤمنين أن يحتكموا إلى شريعة غير شريعة الله، وجعل ذلك منافياً للإيمان.

٤. في المشاركة في الحكم غير الإسلامي مفساد عظيمة، فالذين لا يُحْكَمُونَ شرع الله يحادون الله في أمره، وينازعون في حكمه.

٥. طاعة الحكام فيما يشرعونه مخالفين أمر الله تعني اتخاذهم أرباباً من دون الله.

٦. المشاركة في هذا الحكم فيها ركون إلى الظلمة، وإطالة في عمرهم.

• ثانيًا- أدلة القائلين بالجواز:

قالوا إن الأصل عدم المشاركة، ولكن هناك حالات استثنائية أباحت الشريعة فيها المشاركة، واستدلوا بأدلة من أهمها: دخول يوسف عليه السلام في الوزارة، يقول ابن تيمية: «ومعلوم أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكنه فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يمكن أن يناله بدون ذلك».

« المبحث الثاني / شواهد من التاريخ الحديث في المشاركة:

استطاع الإسلاميون في بعض بلدان العالم الإسلامي أن يدخلوا بعض الوزارات عن طريق الانتخابات والأحلاف، ورغم الجدل الذي دار حولها، إلا أنها راعت القواعد الشرعية في مبادئ المصالح والمفاسد، وحاولت جاهدة أن تلتزم بقواعد

إن قصة نوح عليه السلام ملأى بالدروس، وهي نموذج رفيع للتدليل على أن أنواع التمكين هلاك الكفار ونجاة المؤمنين، ومما يكسبها أهمية خاصة ما تميزت به؛ من أن نوحاً أول الرسل إلى البشر، وهو من أولي العزم، وقضى في دعوة قومه مدة طويلة (٩٥٠ سنة)، كما ورد اسمه كثيراً في القرآن (٤٣ مرة في ٢٩ سورة).

وأما قصة موسى مع فرعون فتبين ضراوة الصراع بين الحق والباطل، وتسلب الضوء على استكبار فرعون وتجره، واستعباده عباد الله واستضعافهم، وكيف أراد الله لبني إسرائيل أن يرد إليهم حريتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة.

وكانت قصة طالوت مع بني إسرائيل من أروع القصص القرآني في بيان سنن الله في النهوض بالأمم المستضعفة، وما هي السمات المطلوبة للقيادة التي تتصدى لمثل هذه الأعمال العظيمة، لتقوية الشعوب والنهوض بها نحو المعالي، وفق منهج رباني، ووسائل عملية وتربوية عميقة على معاني الطاعة والثبات والتضحية من أجل العقيدة الصحيحة.

وفي سيرة النبي ﷺ نجد أيضاً هذا النوع من التمكين ألا وهو النصر على الأعداء، فبعد أن هاجر إلى المدينة قدر ظرفه وزمانه ومكانه، وجهد قوات جهادية حققت أهدافها القريبة والبعيدة، معتمداً على الله في ذلك، أخذاً بالأسباب التي أمره الله بها، فترك لنا معالم نيرة في مغازيه الميمونة، ودروساً عظيمة في كيفية تحقيق النصر على الأعداء، والتمكين لدين الله.

كانت قصة طالوت مع بني إسرائيل من أروع القصص القرآني في بيان سنن الله في النهوض بالأمم المستضعفة، والسمات المطلوبة للقيادة التي تتصدى لمثل هذه الأعمال العظيمة؛ لتقوية الشعوب والنهوض بها نحو المعالي، وفق منهج رباني، ووسائل عملية وتربوية عميقة على معاني الطاعة والثبات والتضحية من أجل العقيدة الصحيحة

الفصل الثالث: مشاركة الكفار أو الظلمة في الحكم:
« المبحث الأول/ أدلة المانعين والقائلين بالجواز بالمشاركة في الحكم:

التقوى والإيمان والعمل الصالح، ودايمًا ما كان يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب. منهجه التربوي في الشعوب: قدم ذو القرنين لكل حاكم منهجًا أساسيًا وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى.

ج. اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير: حيث وظف ذو القرنين العديد من العلوم في دولته القوية، مثل علم الجغرافيا؛ الذي وظفه في حركته مع جيوشه شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، كما كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادة استعمالها والاستفادة منها، كاستعماله للحديد والنحاس في بناء سد يأجوج ومأجوج، كما كان واقعيًا في قياسه للأمور وتدبيره لها، فلم يجعل السد من الحجارة؛ لأنه قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاج إليه من علاج، ورغم علمه بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع، إلا أنه لم يتخذ منها تكئة لتبرير القعود والهوان.

الباب الثاني: شروط التمكين وأسبابه:

الفصل الأول: شروط التمكين:

إن الاستخلاف في الأرض للمؤمنين وعدّ من الله لهم، متى ما حققوا شروطه، وهذه الشروط هي:

« أولاً: الإيمان بالله والعمل الصالح:

بين علماء أهل السنة أن الإيمان: هو التصديق بالقلب، والنطق بالشهادتين، والعمل بالجوارح والأركان. أي: هو اعتقاد وقول وعمل. ومعرفة المعنى الحقيقي للإيمان وشروطه تستلزم على المؤمن عدة أمور، من أهمها: محبة الرسول ﷺ، ومحبة ما جاء به من عند الله، ومحبة المؤمنين، وإيثارهم على النفس بالمال والنصرة والتأييد.

« ثانيًا: تحقيق العبادة:

العبادة في اللغة: الطاعة، وفي الشرع: خضوع وحب. وإن من شروط التمكين للأمة المسلمة أن تفهم حقيقة العبادة، وتعمل على نشر مفهومها الصحيح حتى تخرج الأمة من الأوهام والمغالطات.

ودائرة العبادات رحبة واسعة تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله. وإن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال

الضرورة، ومصلحة العمل الإسلامي، ومصالح المسلمين في هذه الأقطار. ومن أهم هذه التجارب: الحركة الإسلامية في الأردن، والحركة الإسلامية في اليمن، والحركة الإسلامية في تركيا.

الفصل الرابع: إقامة الدولة:

« المبحث الأول/ تمكين الله تعالى لداوود وسليمان عليهما السلام:

تعرض قصة داوود صفات الحاكم المؤمن الذي مكّن الله له، ومن أهمها: الصبر، والعبودية، والقوة على أداء الطاعة، والرجاع إلى الله بالطاعة في أموره كلها، وقوة الملك، والحكمة، وحسن الفصل في الخصومات.

بهذه الصفات أعاد داوود لبني إسرائيل دولتهم وعزهم، وعلى ذلك سار ابنه من بعده سليمان عليه السلام، الذي وصفه القرآن بكونه أوّابًا إلى الله، وقد أكرمه الله بالملك والنبوة، وأعطاه الفهم الثاقب وسداد الرأي ورجاحة العقل.

لقد تسلم سليمان قيادة دولة قوية أسست على الإيمان والتوحيد، وأوتي الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يُؤت أحدٌ مثلما أوتي، ولكنه أعطي قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم، هيأه لأن يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ؛ لقد أعطي النبوة، ومُنح العلم، وأوتي الحكمة. إنه يمثل صفحة من أنصع الصفحات المشرقة في عصور بني إسرائيل الذهبية أيام كانوا على الدين الصحيح.



تعرض قصة داوود صفات الحاكم المؤمن الذي مكّن الله له، ومن أهمها: الصبر، والعبودية، والقوة على أداء الطاعة، والرجاع إلى الله بالطاعة في أموره كلها، وقوة الملك، والحكمة، وحسن الفصل في الخصومات. بهذه الصفات أعاد داوود لبني إسرائيل دولتهم وعزهم

« المبحث الثاني / فقه التمكين عند ذي القرنين:

التأمل في قصة تمكين ذي القرنين يتضح له مجموعة من المعالم؛ منها:

أ. دستور العادل: فقد التزم العدل المطلق في كل أحواله وسكناته، ولم يعامل الأمم التي تغلب عليها بالظلم والجور، بل عاملهم بمنهج العدل الرباني. لقد كان ميزان العدالة في حكمه هو

الفصل الثاني: أسباب التمكين: « أولاً: سنة الأخذ بالأسباب وإرشاد القرآن للإعداد:

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت له الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وجدت الجنة والنار. وقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة، وأوجب عليهم ذلك بصورة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]. يقول سيد قطب: «الإسلام يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها... فلا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان».

« ثانياً: الأسباب المعنوية، من أهمها:

أ. إعداد الأفراد الربانيين: رسم النبي ﷺ منهجاً مميّزاً في تربية الأفراد على معاني الربانية، وتحمل أداء رسالة ربّ البرية، فكان مهتماً ببناء القاعدة الصلبة، وتربية أتباعه على معاني العقيدة الصحيحة منذ اليوم الأول لبعثته، وزرع فيهم العديد من الصفات؛ من أهمها: الصبر، والإلحاح في الدعاء، والإخلاص، والثبات، والإيمان بالقضاء والقدر.

من أهم صفات القائد الرباني: سلامة المعتقد، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والحزم والإرادة القوية، والحلم، والقدرة على حل المشكلات

ب. القيادة الربانية: من أخطر عوائق التمكين غياب القيادة الربانية، وذلك أن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسدوا فسدت. ولقد فطن أعداء الأمة لذلك، فحرصوا على ألا يمكننا القادة الربانيين، كتب المستشرق البريطاني «مونتجمري وات» في جريدة التايمز اللندنية قائلاً: «إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى».

المتأخرة من المسلمين: انحرافهم في تصور مفهوم معنى العبادة. وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص منها العديد من الفوائد؛ من أهمها:

أ. تثبيت الاعتقاد: إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته، والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائماً بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهرًا عملياً دائماً لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيراً مستمراً بسلطان الإله الأعلى، وإلهاباً متجدداً لجذوة اليقين في الله.

ب. تثبيت القيم الأخلاقية: فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليتم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى المثل العليا، والفضائل الكريمة، التي تحقق للإنسان سعاده في الدنيا والآخرة.

ج. إصلاح الجانب الاجتماعي: ويظهر ذلك في الأثر العميق للعبادات في إيجاد العلاقات الاجتماعية، كالصلاة، والزكاة والحج.

« ثالثاً: محاربة الشرك:

من شروط التمكين محاربة الشرك بجميع أشكاله، لذلك يجب على الأمة أن تعرف حقيقة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه. وفي معرفة ذلك فوائد عديدة؛ منها: أن الإنسان بمعرفته للشرك يحذر من الوقوع فيه، ويحذر غيره أيضاً، كما يظهر له بذلك حسن الإسلام والتوحيد.

وللشرك آثار وبيلة على الإنسان في الدنيا والآخرة، سواء كان فرداً أم جماعة، من أخطرها: إطفاء نور الفطرة، والقضاء على عزة النفس ومنازع النفس الرفيعة، بالإضافة إلى تمزيق وحدة النفس البشرية، وإحباط العمل.

« رابعاً: تقوى الله عز وجل:

تقوى الله لها ثمرات على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، من أهمها:

- السهولة واليسر في كل أمر.
- تيسير العلم النافع.
- محبة الله ومحبة ملائكته والقبول في الأرض.
- نصرة الله وتأييده وتسيده.
- البركات من السماء والأرض.
- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم.
- حفظ الذرية بعناية الله تعالى.
- سبب للنجاة من عذاب الدنيا والآخرة.

في القرآن الكريم من خلال قصة يوسف عليه السلام، وسيرة النبي ﷺ.

ج. الإعداد الاقتصادي والإعلامي والأمني: فالقوة الاقتصادية عصب الحياة الدنيا، والضعف فيها يُقهر ولا يُحسب له حساب. كما لا يخفى دور الإعلام الخطير، حيث امتد أثره إلى الفرد والأسرة والمجتمع، وأصبح الإعلام يؤثر في الشعوب ويحرك الجيوش. أما الجانب الأمني فقد تواتر التأكيد عليه في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وهذا يشمل كل ما يتخزن في العدو؛ من استطلاع أخباره، ومعرفة مواطن الضعف فيه، ومواقع آلياته ومنشأته، لأنه يوصل للتخطيط السليم المؤدي إلى الظفر به.

الباب الثالث: مراحل التمكين وأهدافه:

الفصل الأول: مراحل التمكين:

١. مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام: تتمثل أهم وظائف هذه المرحلة في تبليغ وحي الله إلى الناس، وتركية نفوسهم، وتعليمهم العلم النافع. فإذا تحقق ذلك تحقق التعريف بالإسلام بالشكل الصحيح، وتكوين قاعدة عريضة من المدعوين.
٢. مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة: وأهم أهداف هذه المرحلة:

- الاصطفاء: وله معايير؛ من أهمها القدرة الروحية والعقلية والبدنية والحركية والإنتاجية.
- التوظيف: أي حدود العمل للفرد، وتقديره في حدود إمكانات الفرد وطاقته.
- الإعداد والتربية: ويعني إعداد الأفراد وتجهيزهم ليكونوا قادرين على حمل أعباء الجهاد في سبيل الله.
- الانضباط: وذلك بالوصول بالأفراد إلى الانضباط وحفظهم بالحزم، وإحكام إعدادهم وتكوينهم.

وحتى يكون الجيل مؤهلاً للنصر والنهوض بالأمة لا بد أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات الإيمانية والسلوكية والأخلاقية؛ كالإخلاص، والصدق، والصبر، والعطاء، والعفة، والإيمان بالواقعية والعمل الجماعي، والانضباط، وقوة الإرادة، وعزة النفس، والثبات على الحق.

ومن أهم صفات القائد الرباني: سلامة المعتقد، والثقة بالله، والقُدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والحزم والإرادة القوية، والحلم، والقدرة على حل المشكلات.

ج. محاربة أسباب الفرقة: بنوعيتها؛ الداخلية والخارجية، أما الخارجية؛ فمن أهمها: اتساع الفتوحات الإسلامية، ودخول الكثير من أبناء الشعوب الأخرى في الإسلام ولم ينصهروا في عقيدته، بالإضافة إلى اندساس أصحاب العقائد المنحرفة في الإسلام بقصد الكيد له والنيل منه.

وأما الأسباب الداخلية؛ فمن أهمها: الابتداء، والجهل، واتباع الهوى، وتحكيم العقل وتقديمه على النصوص، والهجوم القبيح على أهل السنة، ومخالفة منهجهم في النظر والاستدلال.

د. الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع: فالوحدة سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الرفيعة، ومن أهم أسباب وحدة المسلمين: وحدة العقيدة، وتحكيم الكتاب والسنة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحق والتحري في طلبه، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

« ثالثاً- الأسباب المادية:

إذا أرادت الأمة أن تحقق النصر لا بد لها أن تهتم بالأسباب المادية، لأنها لا تقل أهمية عن الأسباب المعنوية؛ ومن أهم الأسباب المادية:

أ. التفرغ والتخصص ومراكز البحوث: لأن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة، وهذا يستدعي تفرغ أصحاب الكفاءات، مع التنوع والتكامل، لسد كل الثغرات، مع توفير كل ما يحتاجونه لإنجاز مهامهم. ومن الضرورة بمكان التوجه لإعداد متخصصين في جوانب الحياة كافة، والعمل على إنشاء مراكز بحوث ومعلومات متخصصة، لأن عصرنا اليوم يحتاج إلى التخصص الدقيق، فالذكاء والموهبة وحدها لا تكفي، بل الذي يفيد هو الدراسة العملية المتخصصة.

ب. التخطيط والإدارة: فالتخطيط السليم والإدارة الناجحة من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله. والتخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان في حياته في المستقبل. ويتجلى ذلك بشكل واضح

الفصل الثاني- أهداف التمكين:

إذا رجعنا إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية نجد أن من أهداف التمكين:

١. إقامة المجتمع المسلم: الذي تتحقق فيه العبودية لله تعالى، وهذا يستدعي إقامة دولة الإسلام بدعائها ودستورها وقواعدها ومبادئها. أما تلك الدعائم فتتمثل في:

أ. الحاكمة: حيث إن نظام الحكم في الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين والأخلاق والعقيدة، وقد اقترنت السياسة بالدين في الإسلام، وارتبطت بالعقيدة الصحيحة، ولم يبق في الأرض عقيدة سليمة غيرها.

ب. الحاكم الصالح: إن وجود الحاكم الصالح ضرورة إسلامية لتدعيم الدولة الحاكمة بما أنزل الله، ولذلك نجد الشريعة قد أوجبت تنصيبه، وتوافر الإجماع على ذلك منذ عهد الصحابة.

والأصل في الإمام أن يكون صالحاً في نفسه، قدوة لغيره. كما أن دستور الدولة الإسلامية نص على شروط الإمامة العظمى، المتمثلة في: الإسلام، والعدالة، والذكورة، والقدرة وسلامة الحواس، والقرشية، والحرية، والبلوغ، والعقل، والعلم، والحكمة في أمور السلم والحرب.

ج. الرعية الصالحة: فهي قيمة على مسلك الولاية، بحيث إذا زاغوا عن السبيل ردتهم، وإذا اعوجوا قومتهم، فإن أبوا إلا الانحراف خلعتهم. وقد أناطت الشريعة بالرعية مجموعة من الواجبات تجاه الولاية؛ هي: الطاعة، والنصرة، والنصح، والتقويم. وبالمقابل، بينت لها حقوقها، وحثت الحاكم على تنفيذها، ومن أهم هذه الحقوق:

١. الإبقاء على عقيدة الأمة صافية.
٢. حماية الأمة من المفسدين والمحاربين وأعداء الخارج.
٣. تحري الأمانة في اختيار المناصب.
٤. إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه من غير إسراف ولا تقتير.
٥. تحصيل أموال الزكاة والخراج والفيء... إلخ، وصرافها في مصارفها الشرعية.

من الصفات الإيمانية والسلوكية والأخلاقية لجيل التمكين: الإخلاص، والصدق، والصبر، والعطاء، والعفة، والإيمان بالواقعية والعمل الجماعي، والانضباط، وقوة الإرادة، وعزة النفس، والثبات على الحق

٣. مرحلة المغالبة:

أجمع تعريف لهذه المرحلة هي مرحلة المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ومن أهم أولويات هذه المرحلة: الاهتمام بالأفراد المتخصصين القادرين على سد ثغرات العمل الإسلامي، وتعميق الانتماء للدين الإسلامي وللدعوة إلى الله، ويجب أن يكون على رأس هذه المرحلة فقهاء وعلماء قد بلغوا درجة النظر في معرفة الدين وفي معرفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا بد أيضاً من إعطاء دور للعلماء وأن يكونوا في طلائع الطائفة المنصورة التي تسعى لتحكيم شرع الله.

٤. مرحلة التمكين:

هي نزوة العمل الإسلامي، وتمثل الثمرة الناضجة، وهذه المرحلة تعني أن الله تعالى يمكّن لدينه في الأرض عن طريق المؤمنين، وأن هذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان، ويعقبه أمن بعد خوف، كما أن الوصول إليه لا يكون إلا بعد تحقيق شروطه من إيمان وعمل صالح، وتحقيق العبودية، ومحاربة الشرك، وتقوى الله. كما أن لاستمراره شروطاً أيضاً؛ منها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ، وهذه الثلاثة هي إجمال للإسلام كله.

٥. الحركات الإسلامية ودورها في العودة إلى التمكين:

شهد العصر الحديث عدة تجارب لحركات إسلامية كان لها دور في عودة التمكين لدين الله، وقد توارث الأجيال من بعدها تلك التجارب التي تعد معالم راسخة في فقه التمكين، ومن أبرز تلك الحركات خلال القرنين الماضيين: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وحركة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي في الهند، والحركة الإسلامية في السودان.

تفريق بسبب اللون أو الجنس أو الأصل أو الثروة.....الخ.

د. الحريات: نعني بالحرية في نظر الإسلام: ممارسة الأفراد لكل حق من الحقوق الشخصية والفكرية التي لا تتعارض مع أحكام الشريعة وتعاليمها، ولا تصطدم مع المصالح الجماعية، ولا تتنافى مع الآداب الاجتماعية.

وقد كفل الإسلام لكل فرد من أفراد المجتمع مجموعة من الحقوق؛ من أهمها: حق الحياة، وحق الأمن، وحرية العمل، وحرية النقد والتعبير.

٢. نشر الدعوة إلى الله:

إن من أهداف الدولة المسلمة دعوة الناس إلى دين الله، سواء داخل الأمة أو خارجها، للمسلمين وغير المسلمين، أما داخل الأمة فيكون من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والدعوة إلى الأخلاق الكريمة، بكافة الوسائل الشرعية، وأما خارج الأمة فمن أعظم الوسائل الجهاد في سبيل الله. وتحقيق هذه الأمور له ثمرات كثيرة؛ من أهمها إعزاز المسلمين، وإذلال الكافرين، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

الشورى من أنجح الضوابط لكبح جماح العواطف لدى الحكام، وهي نوع من الحوار المفتوح، ومن أحسن الأساليب لتوعية الرأي العام وتنويره، كما أنها تشعر كل فرد في المجتمع بدوره، وتمنحهم الدفء العاطفي والترابط الفكري، ثم إنها امتثال لأمر الله به، واقتداء برسول الله ﷺ

الخاتمة:

ينهي المؤلف كتابه بخاتمة يلخص فيها أبرز النقاط التي وردت في أبواب وفصول الكتاب، فيعيد التأكيد على أهمية العلم بفقه التمكين ودراسته دراسة واقعية، ويعرض أهم صور النصر وأنواعه الواردة في القرآن والسنة، وشروط التمكين وأسبابه، ثم يسرد مراحل التمكين وأهدافه. ويختتم بتوصيات ونصائح إلى زعماء الأمة، والقائمين على الجامعات الإسلامية، وإلى أبناء الأمة الإسلامية كافة.

٢. إقامة قواعد النظام الإسلامي: ومن أهم هذه القواعد:

أ. الشورى: هي واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية؛ فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها. قال ابن عطية: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب». وقال الإمام المودودي: «والأمير حتم عليه أن يسوس البلاد بمشاورة أهل الحل والعقد أعضاء مجلس الشورى، وهو أمير ما دام مزودًا بثقة الأمة».

وقد شرع الله نظام الشورى لحكم بالغة ومقاصد عظيمة، من أهمها: أن الشورى من أنجح الضوابط لكبح جماح العواطف لدى الحكام، وهي نوع من الحوار المفتوح، ومن أحسن الأساليب لتوعية الرأي العام وتنويره، كما أنها تشعر كل فرد في المجتمع بدوره، وتمنحهم الدفء العاطفي والترابط الفكري، ثم إنها امتثال لأمر الله به، واقتداء برسول الله ﷺ.

ب. العدالة: إن إقامة العدل بين الناس أفرادًا وجماعات ودولاً ليست من الأمور التطوعية التي تترك لمزاج الحاكم وهواه، بل هي من أقدس الواجبات وأهمها. وإن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الإسلامي الذي تسود فيه قيم العدل والمساواة، ورفع الظلم ومحاربتة بكل أشكاله، فلا وجود لإسلام في مجتمع يسوده الظلم.

ج. المساواة: يعد مبدأ المساواة أحد المبادئ العامة التي أقرها الإسلام، وهي تساهم في بناء المجتمع المسلم، كما أنها من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديمًا نحو الإسلام. وليس المقصود بالمساواة هنا "المساواة العامة" بين الناس جميعًا في كافة أمور الحياة، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، المساواة المقيدة بأحوال فيها التساوي، وليست مطلقة في جميع الأحوال، أي معاملة الناس أمام الشرع والقضاء والحقوق العامة دون



لصالحِ المرأةِ

محمد علي بسيوني

إنّ الذين ينادون بحرية المرأة وخروجها إلى سوق العمل قد أغفلوا المهام التي خلقت من أجلها المرأة، فإنها -وبكل عزة- هي الرحم الذي تتكون بداخله الحياة، وتلك وسيلة أسمى لغاية أعظم.

وإنّ الذين أكلوا أنفسهم للدفاع عن قضية المرأة قد تناسوا كذلك مدى اختلاف الأنثى عن الذكر في الطبيعة الجسدية والنفسية، وقد نشأ عن هذا الاختلاف في الطبيعة والتكوين اختلاف آخر في القوى البدنية والعقلية، وكيفية مواجهة المشاكل وابتكار الحلول؛ على أن الرجل خلق لما هو قاسٍ وشديدٌ، وخلقَت المرأة لما هو أخف وأرحم.

وإنّ الذين يرتفعون بأصواتهم إلى السماء يقولون: «ما بال أقوام ظلموا المرأة، وأوهنوا أمرها، وأضعفوا شوكتها».. هم بذلك لا يريدون لها أن تتجه إلى المراد والمطلوب منها، بل هم يريدون أن يشغلوا حيزاً في الحياة، أو يبتغوا مجداً أو شهرةً، أو يتبنوا قضية زائفةً، أو في أضعف الظروف وأحلك الحالات يريدون للطبيعة أن تتبدل، وللحقيقة أن تتلاشى.



غبطةٌ وسرورٌ

معاوية الجندي

تشدني رؤية كبار السن المصلين في المساجد، وجودهم يسرني بل ويجعلني أغبطهم كذلك.

بالطبع هناك مبررات لهذا السرور في قلبي وتلك الابتسامة على وجهي، فحين أراهم يباشرون الخروج من المسجد يشدني سلام بعضهم على بعض، فهذا يمشي ببطءٍ وثناقلٍ ليسلم على أخيه، وذلك يجد قوة لديه فينشط لمساعدة غيره على القيام والسير، ومجموعة مستنّ ظرفاء يجتمعون ليمازحوا رفيقهم ببعض حكايات الشباب الذي مضى والعزم الذي انقضى. تسرني رؤيتهم وهم ينصرفون مبتسمين بخطاهم القصيرة المتتالية، يودعون بعضهم على أمل اللقاء في الصلاة التالية إن بقي في العمر مدّة وبقي في الجسم عزم وشدة.

أما ما يجعلني أغبطهم فهو فضل الله عليهم أن وجههم لشهود الجُمع والجماعات رغم كبر أعمارهم وثقل حركتهم والأمراض لدى بعضهم. أغبطهم لعل منهم من ثابر عقوداً من عمره على ارتياد المساجد وتعلق قلبه بها، أغبطهم لعل منهم من جمعتهم المساجد والصلوات لا المصالح وجمع الثروات، فتحابوا في الله اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه.

نعم أغبطهم وأسأل الله أن يحسن خاتمتنا وخاتمتهم.



المراعاة والتراحم قانون الحياة الهائنة

تسليم خليل

المراعاة ضرورة لاستمرار الحياة، وبدونها يتحول البشر إلى قانون الغاب؛ يأكل القوي فيهم الضعيف، ويتربص الضعيف حين تحين له فرصة النهش، وهذا لا يبني حياة هائنة أبدًا.

وعند الحديث عن المراعاة يبرز السؤال عن مسؤولية المراعاة، على عاتق من تقع؟

جاء الإسلام ليعلمنا قانون التراحم الذي يجعل الحياة قابلة وممكنة للجميع، فأمر الكبير أن يرحم الصغير، والغني أن يتصدق على الفقير، والصحيح أن يعود المريض، وهكذا، فالطرف الأقوى يراعي الطرف الأضعف، ويمد له يد المواساة والمساعدة، ليتقوى الضعيف، ويمتلئ قلب الضعيف حبًا لهذا المجتمع المتراحم.

وثمة حالات بحاجة لمراعاة ورحمة قد لا ينتبه لها كثير من الناس، وهم من لديهم ضعف في النفس أو تأخر في الفهم وما أكثرهم، وهؤلاء هم أكثر الناس عرضة للتنمر والسخرية والخديعة وحتى العقوبة لسذاجتهم أو لسهولة الإيقاع بهم.

والعاقل من عامل الناس كما يحب أن يعامل، مقتديًا بخير البشر ﷺ القائل: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أخرجه البخاري.

عُدول الخلف

إسلام عفيفي

لا يلزم أن تكون في زمان عزّ دولة الإسلام وغلبتها حتى تكون من رجاله؛ فلكل زمان رجاله. فمن اختاره الله أن يكون من عدول الخلف الذين يحملون هذا الدين؛ فهو السعيد الموفق.

ولقد شهد أقوام عزّ هذا الدين ثم كُتِبوا على وجوههم في النار، وبلغ أقوام الدرجات عند ربهم في زمان ضعف، «وإذا عظمت المحنة؛ كان ذلك للمؤمن الصالح سببًا لعلو الدرجة وعظيم الأجر..» كما قال ابن تيمية.

وما بلغنا هذا الدين إلا برجال استعملهم الله في زمان الضعف، كما استعمل رجالاً في زمان الغلبة؛ علمًا وجهادًا وبذلًا وتبتلاً لله جل جلاله وعملاً، لا يغني بعضهم عن بعض.

ومن كانت وجهته رضا الله؛ رضي بقدر الله له، ولا يشغل العبد الصادق مع الله إلا أن يعمل بمرضاة الله وأن يكون عنده من المقبولين.

أما الإسلام؛ فعزيز مكين منيع بنفسه، «وإن هذا الأمر له ربّ ينصره» كما قال الإمام أحمد بن حنبل، (ولا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته).





فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

د.خير الله طالب

الخيرات والمساعدة إلى مغفرة من ربهم، تلك عقبة كأداء لا تبني الأوطان دون اقتحامها البتة، وأسرع ما يغسل الخوف: العلم الحي الذي ينير القلوب ويريح النفوس فينهض العقول، والعلم بحقيقة الخلق، وعظمة الخالق الجليل، وغاية الحياة، وسنة الابتلاء بالخير والشر فتنه.

المبادرون أحوج الناس إلى المشورة وترك التفرّد الذي غذيت به نفوسهم وقامت عليه حياتهم أيام البطش والتفريق، مشورة لا تعني الانتظار والتوقف الطويل حتى تتعطل الطاقة وتكَلّف النفس وتفتوت الفرص، إنما استشارة المتخصص والخبير والحكيم والسابق في المجال، تتبعها استخارة تقوي القلب وتشدّ العزم وتزيل المخاوف وتزرع الرضا، حتى ترى في الفشل فرصة التجديد والنهوض من جديد، أو التحوّل إلى عمل جديد.

زاد أولئك المبادرين صبراً جميلاً لا يعرف التذمّر، فضلاً عن التبرّم أو الإحباط.

نفسٌ صبورة، وشخصٌ مبادر مشاور، يتلمس أحسن العمل، فيجده في حدود موهبته المركّبة في طبيعه، وخبرته المصقولة بتجربته، فلا يتجاوزها إلى ما لا يحسن، ولا يخوض فيما لا يعلم، إنما يلزم ما آتاه الله، فلا يحتقر من المعروف شيئاً، عالماً بأنّ السبق إلى الجنة إنما هو بالقلوب مهما كانت الأعمال، ولربما سبق عاملُ النظافة الذي يميّط الأذى عن الطريق إلى الجنة خطيب المنبر وإمام المحراب، بحسب ما يقوم بقلبه من إخلاص واستعانة وتواضع ورضى، وما يعمر به وقته من فعل ما يقدر عليه، مهما رآه الناس صغيراً أو حقيراً.

يلتقي أولئك السائرون باختلاف مجالاتهم وأهدافهم ومساراتهم ومشروعاتهم على الصراط المستقيم، صراط المنعم عليهم، الذين اهتموا في سيرهم بالوحي والتزموا أمره، فما أهملوا العلم والسؤال، ولا تركوا العمل في المجال.

بهؤلاء وحدهم تحفظ البلدان ويبنى الإنسان ويقوم العمران، بعد اجتيازهم ذلك الامتحان، امتحان العمل بعد النصر، والبناء بعد النجاة، والسراء بعد الضراء، مستشعرين أنّ الله تعالى ينظر إليهم كيف يعملون.

في ذروة تهديد فرعون لبني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نساءهم، يأمر موسى عليه السلام قومه بالصبر والاستعانة بالله عز وجل، ويجدّد أملهم قائلاً: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فالتكليف مستدام في الضراء والسراء.

هكذا وجد أهل سوريا الشام أنفسهم وقد هلك دعوهم، واستخلفهم الله في الأرض، لينظر كيف يعملون، فتأكد في حقهم أن يكونوا ممن يعيدون الله لا يشركون به شيئاً، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور.

بمجرد هلاك العدوّ تتغير الأولويات، فتنشأ فرص كانت غير مستطاعة، وتتبدل مراتب الأعمال، وتتسع المجالات للعاملين؛ الأمر الذي يوجب إعادة ترتيب الواجبات على المستوى العام والخاص، ويحمّل الرواحل^(١) حينها مسؤولية الارتقاء بأدوارهم إلى أعلى قدر ممكن، مما قد لا يستطيعه غيرهم، فيفسحوا بذلك المجال للكوادر. وليس العاطل هو فقط من لا يعمل، وإنما هو أيضاً الذي يعمل عملاً ويستطيع أفضل منه. ومن عجز عن القيام بواجب، وجب عليه إعانة القادر عليه.

فالدخول في الوظائف العامّة، والبروز لخدمة الناس تزدهم فيه الأعمال غير المألوفة التي يرغب عنها أكثر الناس، فيزداد فضلها ومرتبته احتساب عنائتها الذي يكون فيه بذل الجاه، وإشغال الأوقات، واحتمال الأذى، والذي يُستعان عليه بعد الله تعالى بإنكار الذات، وبناء الثقة بين شركاء الدرب، والإصغاء الذي ينشط التفكير، والحوار الموصل إلى التوافق، والتشارك الذي يحقق التكامل.

وبجوار هذا المسار مسار دعوي ومجتمعي آخر غير رسمي يتمدّد في الفراغات، ويسابق الزمن، ويتكامل مع المسار الرسمي في بناء الإنسان والعمران، وتتسع مساحات بناء الإنسان وتحرير عقله ونفسه وقلبه بعد جسده وبلده بما يفوق جهود الكيانات جميعاً وإمكاناتها، فلا مكان حينها لدى العقلاء للسفاسف والصغائر والضغائن والخلافات^(٢).

أول ما تحتاجه النفوس الحرة تخلصها من عقدة الخوف والإحجام، واستشعار القدرة على الفعل والإقدام، كي تتمكّن من المبادرة بالأعمال واستباق

(١) هم الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهام، قال ﷺ: (إنّما النَّاسُ كالإبل المائيّة، لا تكادُ تجدُّ فيها راجلةً) متفق عليه.
(٢) يراجع كتاب: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا) لنور الجندي، للتعرف على خصائص الإنسان بعد تحرره.



ترحب مجلة رَوَاء بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة



ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة
وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

رقاء



rawaamagazine

www.rawaamagazine.com